حـــــارة الشراقة

روايـــــة

تأليف

د. إبراهيم العلـم

2012

obeikandl.com

حارة الشراقة

رواية

تأليف : د. إبراهيم العلم

الطبعة الأولى

أيار 2012

جميع الحقوق محفوظة

صدرت عن

دار الجندي للنشر والتوزيع / القدس– فلسطين

00972542263454

info@aljundi.biz

www. aljundi.biz

التصميم

شريف سمحان

00972599875664

لوحة الغلاف

الفنان: علاء البابا

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

1

كان رؤوف وعاصم ما زالا صغيرين حين جاءت بهما أمهما إلى رام الله، ووقف أبو صالح صاحب البيت معهما أمام سيارة الشحن الصغيرة وراح يراقب السائق وهو ينقل الأثاث الضئيل إلى المنزل، ثم اقترب من الجارة الجديدة قائلا:

أهلا وسهلا جارتنا

وبكم يا جارنا

قالتها على استحياء وهي تغطي وجهها بمنديل أسود، ثم أردف:

إن شاء الله ستكون عتبة هذا البيت خضراء عليكم.

كل شيء بأمره سبحانه وتعالى

إذ كان البيت قديما ولا تزيد مساحتُه على غرفة ومدخل، فجعلت من الغرفة مكانا للنوم وللطبخ ووضعت في ركن المطبخ طاولة وموقد الكاز وطنجرتين نحاسيتين وبضعة صحون بعضها مشقوق وعدة

obeikandl.com

أكواب، وجعلت المدخل غرفة للجلوس وضعت فيه أربعة كراسي خشبية داكنة.

ثم أسرعت إلى السوق الرئيسي القريب من المنزل لتشتري بعض الطعام إذ كانت الساعة تقترب من الواحدة.

وحين أوى الطفلان إلى فراشهما على الأرض أسلم الأصغر عينيه إلى النوم على حين شرع الأكبر يتأمل السقف إذ لم ير مثله في الرملة، كانت جوانبه منحدرة أشبه بخيمة وكان ارتفاعه ظاهرا وبه بقع رمادية وخضراء بفعل الرطوبة، فخيّل إليه وهو يحملق فيه كأنه يرى أشكالا مختلفة، فثمّة بقعة كهيئة خروف له قرنان وأخرى تشبه إنسانا يضع عصا على كتفه وثالثة على شكل طفل يركب سيارة للأطفال كالتي رآها في منزل أسرة ثرية زارتها أمه ذات يوم وتمنى أن يركب مثلها، غير أنه أحجم عن أن يطالب أمه بشرائها لأنه رأى أثاث هذه الأسرة فاخرا أين منه أثاث منزله فلا يعقل أن تتمكن أمُّه من شراء سيارة مثلها.

ولم تكن المرأة تعرف في هذه البلدة أحدا سوى سلفها شقيق زوجها وأسرته، على أن صلتها بهم لا بد من أن تكون في المستقبل ضعيفة بعد ما طلقها زوجها في مدينة الرملة. فقد علمت أن انفجارات عدة حدثت في تلك المدينة راح ضحيتها عدد من القتلى والجرحى وضعها صهاينة، ورأت سيارات شحن تنقل أمتعة الناس استعدادا للرحيل خوفا من أن يداهمهم الموت هم أيضا كما داهم الكثيرين. فقالت في نفسها "إذا كان الرجال يفرون فكيف أبقى أنا المرأة المطلقة!".

وسرعان ما اندمج الطفلان في جماعة الأولاد بالحارة. كان رؤوف في التاسعة وعاصم في السابعة وتعلّما لونا من اللعب يقوم على إلقاء بذور المشمش في حفرة تبعد نحو متر ونصف يلقي فيها

لأولاد البذور بذرة بذرة ومن يدخل بذرته في الحفرة يحصل على ما حولها من بذور عجز أصحابها عن إدخالها فيها وكانت البذور توضع عادة في جورب قديم ثم تكسر وتؤكل.

ورأى الشقيقان أن يرافقا ولدين آخرين في التجوال في أزقة حارة "الشراقة" برام الله القديمة، فأعجبا بجمالها إذ كانت تحيط بها أشجار الجوز واللوز والتوت الأبيض والمشمش وكروم العنب. وقال رؤوف في نفسه "لم تخطئ أمي في اختيار هذه البلدة، صحيح أن حارة "فانوس" في الرملة جميلة أيضا بأشجار الليمون والبرتقال ذات الرائحة العطرة التي أحبها كثيرا وأتمنى أن أرى مثلها هنا، إلا أن حارة فانوس لا يغطيها الأسفلت مثل هذه الحارة كما أننا نستطيع أن نلعب هنا عند الظهر لأن الحرارة ليست شديدة مثل جو الرملة".

ثم عرّج الأولاد الأربعة عل الحارات الأخرى التي يجهلون أسماءها ومروا بسوق الخضار الذي يقابل مبنى البلدية ويجاور الكنيسة فصافحت أنوفهم روائح عطرة صادرة عن الفواكه الصيفية وتوقف عاصم أمام ثمار البطيخ الخضراء الداكنة الضاربة إلى البياض فأعجب بترتيبها إذ تبدأ بقاعدة عريضة ثم تضيق الصفوف كلما ارتفعت وقد احتلت ركنا واسعا من الدكان. ثم ساروا في شارع ضيق يمر بالكنيسة ويصعد إلى أعلى ووقفوا عند صيدلية بدت رفوفها الخشبية متآكلة وقال لهم رفيقهم إن صاحبها أرمني عجوز ثم تجاوزوها ووقفوا ينظرون برغبة شديدة إلى بائع البوظة وهو يجر عربة ذات يدين بارزتين وينادي قائلا "دُندرمة دُندرمة" وتابعوا سيرهم نحو مفرق طرق تنتهي به البلدة القديمة وبجواره حقل به شجر خوخ ومشمش وإلى الجهة الشرقية حُرج من الصنوبر موحش فعادوا أدراجهم مسرعين حتى بلغوا سوق الخضار فرأوا

أناسا كثيرين قرب مبنى البلدية فاطمأنت قلوبهم. ورأوا أولئك الناس يتحركون نحو حارة الشراقة وهم يهتفون فوقفوا يصغون ليتبينوا العبارات التي يسمعونها ثم اعتلى رجل كتف أحدهم وراح يطلق عددا من الهتافات فيرددها الجمهور من بعده فانضم اليهم الأولاد الأربعة وساروا معهم وهنا أدركوا أن الذي يهتف كان يقول "سَكّر يا قليل الدين ضاعت منّك فلسطين" فيردد السائرون هذه العبارة بطريقة حماسية منغّمة ثم عاد الرجل يقول والعرق يتصبّب من جبينه "فلسطين بْلادْنا واليهود كلابْنا" فانبرى له أحدهم من بين الجمهور وصاح به "لا تقل اليهود بل قل الصهاينة" فأعاد الرجل العبارة بعد أن استبدل كلمة (الصهاينة) بكلمة (اليهود) "فلسطين بلادْنا والصهيانة كلابْنا". ثم صاح شاب آخر "حجّامين[1]" لا تهتم حولك شرابين الدم" فسأل عاصم شقيقه عن "الحجّامين" فلم يعرفْ إلا أن الاثنين ردّدا الهتاف كالآخرين.

وجالت الجموع في أحياء رام الله القديمة، عرّجت أولا على حارة "الشراقة" ثم حارة "الشقرة" ومرت بحارة "دار ابراهيم" حتى انتهوا إلى حارة "دار جغب" ثم عادوا إلى ساحة البلدية، وكان الرصاص ينطلق من البنادق. فسمع رؤوف رجلا يقول لمن يرافقه "البواريد الطلياني ضعيفة كما سمعت بعكس البواريد الألماني". ورد الرجل موضحا "أين هذه البواريد ذات الطلقة الواحدة من رشاشات اليهود الحديثة التي تأتيهم من مصانع أوروبا بلا حساب".

مالت الشمس إلى المغيب فأسرع الشقيقان إلى البيت تاركين صديقيهما وسط الجموع قبل أن تتفرّق.

---

(1) المقصود "بالحجّامين" الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا آنذاك.

وفي عصر أحد الأيام رأى الشقيقان وبعض الصبية ممن كانوا يلعبون بكرة في الحارة جمهرة من الرجال مهرولين فدفعهم حب الاستطلاع إلى مرافقتهم وحين اقتربوا من حارة "دار يوسف" سمع الأولاد أن وجهتهم حقول تقع في أطراف الحارة والتقطت آذانهم حديث الرجال عن "طوشة" بين الجن، إذ وقفوا يصغون بانتباه شديد وسمع عاصم أحدهم يقول بصوت خافت "يبدو أنهم يتشاجرون مرة في الشهر ثم يتفقون!" غير أن رؤوف لم يسمع شيئا من صراخ الجن. ثم انبرى أحد الرجال يقول بصوت منخفض "أصغوا جيدا إنهم يشتمون بعضهم بعضا" فأرهفوا السمع قليلا ثم هزّوا رؤوسهم مؤيدين. أما رؤوف والصبية فنظروا بعضهم إلى بعض حائرين إذ لم يسمعوا كلمة واحدة من هؤلاء الجن المتشاجرين.

وحين عاد الجمع قال رؤوف لعاصم:

هل سمعت شيئا؟

فأجاب بثقة:

أظن أنني لم أسمع شيئا، فكيف سمع هؤلاء الرجال!

وقال طفل كان يسير بجوارهما:

وأنا أيضا لم أسمع شيئا

إذ بدت خيبة الأمل ظاهرة على وجوه الأطفال إلا أنهم ظلوا صامتين.

...

كان صاحب الدار يعمل في يافا وجمع بعض المال من العمل في الميناء بنى به بيتا بعدما تقدم الزمن بالبيت القديم، وحين فتح ميناء تل ابيب ضاق الرزق في ميناء يافا فعاد إلى رام الله وهو يشعر بالتعاسة واتجه إلى حراثة الأراضي إذ ابتاع بغلا ومحراثا، وكثيرا ما ردّد بينه

وبين نفسه "كان يجب ألا نضرب عن العمل" فقد دعي عمال الميناء إلى الإضراب مما دفع سلطة الانتداب البريطاني إلى الموافقة على إقامة ميناء تل أبيب، وما هي إلا أن أدرك العمال العرب أنهم وقعوا ضحية مؤامرة دنيئة ارتكبها أحد الزعماء المأجورين، وحين افتضح أمره ولّى هاربا.

وقف أبو صالح أمام منزله مترقبا ظهور جارته، وهنا قال لها وهي تخرج من الغرفة:

صباح الخير يا جارة، أنا ذاهب الى الكويت للعمل في الميناء مع بعض الأصحاب فأرجو أن تهتمي بالأرض التي أمام بيتكم بسقاية شتلات اللوز والمشمش ولك مني هدية (معتبرة) عندما أعود.

كان يحدثها وهو يسلّط نحوها نظرات اشتهاء وكأنه يقول لها ليتني استطيع الزواج منك عندما أعود وأدركت ما في عينيه إلا أنها تظاهرت بعدم الانتباه وقالت في نفسها "هذا رجل متزوج وزائغ العين تماما مثل طليقي". فقد كان طليقها مهتما بشؤونها حريصا عليها في سنوات زواجهما الأولى قبل أن تنجب ابنها الثاني ثم شرع يبدي التذمر لسبب ولغير سبب حتى ضبطته يوما مع امرأة في غرفة النوم فأسرعت تدعو جارتها وصاحت فيه على مسمع منها ومن العشيقة التي وقفت تنتفض ذعرا:

في سريري يا نظمي أيضا! ماذا كنت تفعل لو رأيتني أنا مع رجل في سريرك؟ أما كنت تقتله وتقتلني؟ ... طلقني حالا وإلا جمعت أهل الحارة...

فطلقها وخرج مع عشيقته تاركا لها البيت، ولكن كيف تتدبر معيشتها دون عائل، وأسرعت أمها إليها بعد أسبوع وراحت تندب

حظ ابنتها العاثر "يا ويلي! ماذا فعلت حتى تنصبّ علينا المصائب، أبوك طلقني بعد ما عدت من البرازيل، خدعني حين حثني على المجيئ إلى هذه البلاد بحجة الإشفاق عليّ لأنني ابتعدت عن أهلي عدة سنوات ولأنهم مشتاقون إليّ ثم قالت "وها قد وقعت يا مريم في نفس المشكلة ولكن لا بأس سأتكفل بك وبطفليك ولو تزوجت مرة أخرى."

وتذكرت هذه الأم قولة زوجها في البرازيل "سألحق بك بعد أسبوعين" وقبل أن ينتهي الأسبوعان أرسل إليها ورقة الطلاق.

إذ قضت الأسبوع الأولى كانت خلاله سعيدة برؤية ذويها وقال لها أخوها مازحا "أيّ أفضل بلادنا أم بلادكم؟" فأجابت "البرازيل أفضل طبعا لأن فيها زوجي ولكنني أحب بلادي ولا أفضل عليها بلدا آخر."

وجاء الأسبوع الثاني فازداد شوقها إلى رؤية زوجها وراحت تختار من بين فساتينها التي أحضرتها الفستان الأنسب وطفقت أمها تسخر من اهتمامها الزائد بزوجها حين سألتها:

أي فستان ألبس يمّا؟ الأزرق أم الأخضر؟

...

انتهى الأسبوع الثاني ولم يأت زوجها وبدلا من ذلك جاءتها ورقة تضم بضعة أسطر تعلن تطليقها وأنها لا تستطيع العودة إلى البرازيل. أغمي عليها وانتشرت في البيت أصوات التفجع ووضعت في غرفة الإنعاش يومين وحين أفاقت أخذ اخوتها يهوّنون عليها الأمر.

وقالت أم مريم "ما ذنبنا حتى نعاني من الطلاق مرارا ولكن يجب أن تصمدي كما صمدت."

وردت مريم "كتب علينا أن نخضع للرجال يطلقوننا فنصمت

ويتزوجوننا دون أن نبدي رأيا ونمنع من أن نختار من نحب، فلو تزوجت أشرف لعشت حياة سعيدة كما تعيش الآن زوجته معه. "

ثم أردفت:

الآن عرفت أنك لم تظلميني فقط بإرغامي على الزواج من نظمي، بل أنا التي ظلمت نفسي بسكوتي.

كان عدد من المتقدمين في السن يجلسون على سور الكنيسة حين مرت من أمامهم مريم ومعها ابناها فقال أحدهم وهو من جيرانها "هذه المرأة تبدو مضطربة في حياتها فهي تجلس في منزلها قرب النافذة تشرب الشاي وعيناها شاخصتان نحو الأفق لا تنظر إلى أحد ولا تلقي سوى نظرات يسيرة على ولد مراهق يقف في الشارع مدة من الزمن ثم ينصرف بعد أن تبتعد عن النافذة"، وعقب آخر "كيف لا تردعونه... هذه ليست مروءة فقد اصبحت جزءا من حارتكم!" فقال ثالث ضاحكا "حارتنا لا يهتم الواحد فيها إلا بنفسه". فغضب الأول قائلا "اسم الله على حارتكم، كلها نخوة لا نسمع منكم سوى الكلام فأنتم وجماعتكم (البيرويّة) فولة وانقسمت" وقال رابع متأففا "ما لنا وللعالم تعالوا نلعب (السيجة)[2]."

(2) لعبة شعبية تشبه الشطرنج.

9

ودع صاحب البيت مريم ثم استقل سيارة إلى عمّان ومنها إلى الكويت. وقالت زوجته في حزن "حين كان يعمل أبو صالح في يافا، كان يأتي الينا مرّة في الشهر فيقيم يومين مثل بلة ريق. أما الآن فسيغيب عني سنة كاملة فهل كتب علينا التشتتّ!" وقالت مريم مستضحكة "أنا وانت في الهوى سواء. أنا مطلقة وأنت كالمطلقة. ضعي رأسك بجانب رأسي" وردّت أم صالح "ما يعزيني يا جارتي ان كثيرا من الرجال ذهبو إلى (الكويك)[3] بحثا عن العمل كما ن (المعاشات) أفضل والعمل متوافر فيها بعكس هذه البلاد."

وفي السنوات التالية تغيرت ملامح مريم وظهرت عليها علائم الصحة فبدا جمالها ذا خطوط واضحة، إذ وضعت ابنيها في مؤسسة للأيتام فكفيت مؤونة إطعامهما والعناية بهما وواصلت أسرتها إمدادها ببعض المال.

وحين أنهى رؤوف دراسته الثانوية بنجاح ملحوظ، أسرع يبحث عن عمل فوجده في وزارة الأشغال العامة الأردنية مراقبا على العمال

obeikandl.com

فنعمت الأسرة براتب شهري يكفيها العوز غير أنه تطلع للعمل في الكويت كسائر الشبان من أبناء جيله لأن حرائق النكبة وما رافقها من ذل وحرمان كانت ما تزال مشتعلة في حنايا المجتمع.

مرت أيام لم ير فيها رؤوف بائع الترمس الذي كان وجوده أمام مبنى البلدية القديم المقابل لسوق الخضار جزءا من مشهد الشارع ولم يكن في البلدة القديمة من رام الله شارع تجاري سواه، فنقل تساؤله إلى البقال حين ذهب إليه ليشتري علبة طحينة ووقية قهوة كما طلبت أمه فابتسم البقال وأجاب "لست الوحيد الذي يسأل عنه، أصبح الآن في (كندا) الله يسهل عليه". فعلق في سره "الهجرة تلاحق الناس شرقا وغربا حتى كاد سوق الحسبة يخلو من المشترين فقد اختفت وجوه كثيرة في الحارات المتجاورة كنت أستأنس برؤيتها فإذا كانت هجرة 1948 قسرية هربا من الموت فإن هجرة هذه الأيام قسرية أيضا ولكن هربا من الجوع. فلماذا لا أذهب أنا أيضا إلى الكويت بعدما تدفّق النفط في أراضيها وتدافع الناس للعمل فيها.

"لو بقيت في رام الله لكنت موظفا في الدرجة الخامسة" قال رؤوف ذلك في نفسه ثم أردف "والحمدلله أن أخي وفق في دراسة الشريعة بالمراسلة".

فقد عمل عاصم معلما بعدما تخرج في المدرسة الثانوية، غير أن راتبه بدا هزيلا لا يلائم طموحه، فوجّه نظره إلى دراسة الشريعة وها هو الآن قاض في وزارة الأوقاف.

وقال لأخيه رؤوف "لا أنسى لك أنك وجهتني إلى دراسة الشريعة وأنفقت على دراستي وإلا لكنت الآن أقيم مع أمي في بيتها الصغير". "لم أفعل سوى ما يجب علي عمله، ولولا وزارة الأوقاف لما أصبحت في هذه المنزلة" قال له رؤوف، ثم أردف "أتذكر جارنا ميخائيل؟"

---

(3) هكذا كان كثير من العامّة يلفظون الكويت.

طبعا أذكره فقد لعبنا معا في طفولتنا وجلنا في الحقول بحثا عن العصافير لعلنا نصطاد بعضها.

ما رأيك في أن نزوره بعد العصر لتهنئته بسلامة العودة فقد عاد الان قسيسا بعد دراسة اللاهوت في لبنان وقد اهتدى مثلك إلى هذه الوظيفة بعدما بحث طويلا عن عمل يوفّر له لقمة العيش، فعقّب الشيخ عاصم "حضن الدين واسع للطامحين".

كان الحديث في منزل القسيس عن لبنان وجمال جباله الخضراء وروعة غاباته الأرزية والصنوبرية ومغارات نسّاكه من الرهبان.

وقال الشيخ عاصم ضاحكا:

كنت أتوقع أن تأتي بعروس من لبنان.

فأجاب:

البنات كثيرات في لبنان وهن متحررات أكثر مما توقعت وهذا في بيروت فقط أما في القرى فلا.

وعقب الشيخ عاصم:

نحن الآن أنا وأنت رجلا دين وليقدرنا الله على خدمته كما ينبغي.

وكان على رؤوف أن يمضي أشهر الصيف في رام الله قبل أن يعود إلى الكويت.

...

قالت أم صالح في سرها رؤوف ممتلئ صحة وشبابا وأشعر بالرغبة فيه. وكانت تجلس في حديقة المنزل يوم خرج رؤوف من منزله فألقى عليها تحية الصباح، وهنا قالت له:

ما شاء الله أصبحت شابا يا رؤوف هل تسمح لي بتقبيلك؟

ما المناسبة يا أم صالح؟

obeikandl.com

قبلة الصباح.

وضغطت خدّه بقبلة عميقة جعلت قلبه ينتفض وداخله شعور غريب نحوها إلا أنها تكبره بما لا يقل عن خمسة عشر عاما، انها مثل أمه تقريبا.

...

فاتح الشيخ عاصم أمه برغبته في الزواج لأنه نصف الدين ولأنه سينتقل إلى نابلس ليعمل هناك بعيدا عنها ففكّرت قليلا في سرّها "معه حق لا يستطيع الرجل الوحيد في مدينة بعيدة أن يعيش بلا امرأة، إذن فلنبحث له عن واحدة شريطة أن تكون من الاغنياء ليعيش ابنها مرتاحا من هموم الفقر. فقد كابدتها حين جاءت إلى رام الله ولا تريد لابنها أن يقاسي مثل هذه الهموم من جديد.

وطرقت مع أم صالح باب إحدى الأسر الثرية فرحبت بابنها وافقا على موعد الخطبة والزفاف.

فأمضى الشيخ عاصم الأسبوع الأول للزواج في منزل تملكه أسرة العروس ثم غادره إلى نابلس وأقام في منزل جميل استأجره والدها.

...

وقالت أم صالح لرؤوف وهي تعانقه "كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر لماذا لم تفكر فيّ من قبل؟" "كنت أظنك لا تلتفتين إلى رغباتك وكنت أراك مهتمة بتدبير منزلك، ولكن أبو صالح يظنك امرأة مخلصة."

فهل كان هو مخلصا؟ لا يا حبيبي لم يكن مخلصا فقد ضبطه مع أم مالك في منزلها، فحين أخبرتني جارتها أسرعت لأراها في حضنه.

ماذا فعلت عندها؟

هدّدني بالطرد من المنزل إن فتحت فمي وأنا امرأة فقيرة لا يملك أهلي سوى طعام يومهم."

...

شغلت الأحزاب الناس بعد حلف بغداد ودبت الحماسة في صدور الشباب للانخراط فيها وهنا فاتح رؤوف صديقه في أمرها فأجاب:

أنا يا صديقي مهتم بتأمين لقمة عيشي

حقا لا ضرورة للانتماء إلى أي حزب وتستطيع أن تكون صديقا فحسب.

فأجاب دون تردد:

أنا صديق للأحزاب جميعها فكلهم يعمل لمصلحة الوطن وكل منا يخدم وطنه على طريقته.

وذات يوم كان يجلس في عرس فأقبل عليه صديق ربطته به زمالة الدراسة في المرحلة الثانوية فرّحب به بحرارة وكانت الشمس متوهجة بسبب القيظ فأبدى الصديق رغبة في أن ينتقلا إلى مكان ظليل تحت الأشجار الثلاث التي في ساحة المنزل ثم تبادلا الحديث حول الصحة والعمل والأسرة، وكان هذا الصديق يعمل مراسلا لصحيفة يومية ومحررا للأخبار فيها في الوقت نفسه فبادره ضاحكا:

أرى عمل جريدتك ناجحا هذه الأيام فإعلانات النعي تزحم صفحاتها.

فرد مبتسما:

ولا سيما أن من يموتون هذه الأيام من الأثرياء والمرموقين.

ثم انتقل الحديث حول الأحزاب والفصائل السياسية وكان رؤوف يعلم أن هذا الصديق ذو توجّه يساري وكان مما قال له:

عهدي بك يساريا حين كنت في المرحلة الثانوية.

فأجاب بسرعة:

قد "تقاعدت" اليوم "ما فيش فايده" كما قال سعد زغلول ولكن الحق أن اليسار لا يفرق بين مواطن وآخر أما الحزب الديني فلا يمثّل إلا طائفة دينية بمفردها ثم إن من يؤمن بدين معين إنما يتبع دين أبيه فأي فضل لي في أن أكون مسلما إذا كان أبي مسلما أو أن أكون مسيحيا إذا كان أبي مسيحيا؟ وأنا أعلم أن من يقوم بعمل جيد هو الذي يحق له أن يفخر به، أما الذي ترثه فهو قدر مقدر لا فضل لك فيه. فأجاب رؤوف:

بل أخشى إذا انتميت إلى حزب سياسي أن تجعله لك وطنا.

فرد قائلا وهو يبتسم:

هذا رأيك.

ظل رؤوف يتردد على أم صالح كلما دعته إليها أو دعته الشهوة إذ تقف خلف الشباك المطل على منزله فتشير إليه فيسرع إليها. غير أن أمه شعرت بذلك فهددتها بفضح سلوكها إلى زوجها حين يعود من الكويت ثم دعت ابنها إليها قائلة والغضب يطبع وجهها:

هذا طريق لا فائدة منه، فإلى متى ستظل تسلك هذا السلوك الذي يرفضه الله ويترفع الانسان المحترم عنه، هل ترضى أن تفعل امرأتك الشيء نفسه؟

فأجاب وهو يطرق بعينيه إلى الأرض:

أعدك ألا أفعل بعد الآن.

وأنا بدوري سأبحث لك عن عروس عندما تعود من الكويت في السنة القادمة كما فعلت مع أخيك عاصم. انظر إليه الآن ها هو أب لطفل جميل ويعيش في سعادة مع زوجته.

أعدك أن أتزوج في العام القادم والحق أنني مللت العمل في تلك

البلاد. الغربة صعبة ولا سيما بالنسبة إليّ لأنني اعتدت أن آكل من يديك فقط.

فشعرت أمه بالزهو وقالت:

ولا تنس أن طعامي ممزوج بالمحبة محبة الأم ولهذا فإن له نكهة خاصة تعجز المطاعم عن توفيرها لكم.

obeikandl.com

3

دقت الساعة السادسة فأيقظت المرأة زوجها رؤوف بهدوء "انهض الساعة السادسة" فنهض متثاقلا إذ لم يعتد الاستيقاظ عند السادسة في الكويت لأن على الزوجين أن يستعدا للذهاب إلى الوظيفة، هي إلى دائرة الصحة وزوجها إلى الفندق الذي كان أقيم حديثا. فقد بدأت رام الله تكبر عندما جاء إليها سكان القدس ونابلس وجنين، وطفقت الفنادق والمطاعم تنتشر فيها إلى جانب البنايات الشاهقة وأقيم ميدان جديد في (المنارة) أوسع من السابق ووضعت فيه بدلا من العمود السابق تماثيل وردية لأسود ضخمة بعضها جاثم وبعضها واقف يراقب المارة.

استعد الاثنان لمغادرة البيت وما إن ابتعدا قليلا حتى شاهدا سعاد وهي فتاة تسكن مع أسرتها في نفس الحي، كانت تسير مترنحة وتبكي بحرقة فاستوقفها رؤوف.

ما لك؟

obeikandl.com

غدرت بي عائلتي لأني رفضت الزواج من ابن خالي.

لماذا رفضته؟

...

ماذا فعلت عائلتك؟

ساعدته على اغتصابي.

اغتصابك؟ ماذا أسمع؟ أإلى هذا الحد وصلت همجية بعض الناس؟

إلى هذا الحد.

وأخرجت زوجة رؤوف مناديل ورقية من "جزدانها" ومسحت عيني الفتاة وهي تقول:

الله ما بنساك، لا تخافي، ولكن ماذا حصل؟

أرغمني أبي على أن أستيقظ فرفضت وبقيت في الفراش فدخل السافل الغرفة فهجم عليّ واغتصبني... كنت ما زلت بين النوم واليقظة حين انبطح علي هذا الحقير بكل ثقله.

لماذا رفضته فهو مقتدر كما نعلم ويستطيع الإنفاق عليك؟

هذا ما جعل أبي يندفع إلى إرغامي على الزواج منه رغم أني لا أطيقه.

وماذا ستفعلين الآن؟

قال رؤوف ذلك بحنان.

سأذهب إلى الشيخ عاصم في نابلس لأنه رجل ذو شفقة وسيجد لي حلا، فقد نشأنا في نفس الحي وكان يأتي إلى بيتنا لتعليمي أحيانا.

أما أنا فسأذهب إلى والدك، ولا بد من أن أرى مخرجا مناسبا إن شاء الله لئلا تنتشر هذه الفضيحة.

obeikandl.com

وصل الثلاثة إلى موقف نابلس للسيارات وطلب رؤوف إلى السائق أن يبلغها منزل الشيخ عاصم بعدما نقده الأجرة وأعطاها دينارا لشراء طعام فامتنعت في البداية متذرّعة بأن معها من المال ما يكفي.

وقال لها السائق حين وصل إلى منزل الشيخ عاصم:

سأنتظرك حتى تدخلي لأنك غريبة في هذه المدينة.

فطرقت الباب وانتظرت قليلا ثم طرقته ثانية فلم يفتح فعادت أدراجها إلى السائق والخيبة تطوف بعينيها.

يبدو أن لا أحد في البيت.

فقادها في سيارته إلى المحكمة الشرعية وسأل عنه كاتب العرائض الذي يجلس على كرسي نسج سطحه بالقش، فأجاب: " قد دخل قبل قليل. "

فطرقت باب غرفته ودخلت، وما إن رآها حتى استقبلها مرحبا بحرارة وقال لها:

أخبرني الآن أخي، تفضلي.

وقدم لها كأسا من الشاي فرشفت منه عدة رشفات قبل أن تقول له:

جئت طالبة مساعدتك فأرجو ألاّ يخيب ظني.

لحسن حظك أني أعرف مديرة ميتم البنات ولا بد من أن نساعدك فأنت في رأيي حالة خاصة وينبغي أن نوفر لك الحماية قبل أن نتخذ الإجراء المناسب بحق والدك وذلك الشاب الفاسد.

. . .

obeikandi.com

4

قادت مديرة الميتم سعاد إلى سريرها العلوي وعرّفتها إلى زميلتها التي تنام في السرير السفلي، فاستبدت بها الدهشة وشعرت بالحذر لمرأى سريرين أحدهما فوق الآخر ثم نظرت حولها في الغرفة فرأت خمسة أسرة ذوات طابقين وكانت أغطيتها ذات لون بني ورأت نافذتين لا تزيد الواحدة منهما على متر.

ثم جاء الشيخ عاصم يزورها بعد أسبوع ليطمئن على حياتها في الميتم وطلب إليها ألا تتردّد في طلب أي شيء منه، مما جعل مديرة الميتم توجّه إليها عناية خاصة.

وتناهى إلى علم المديرة أن بعض البنات أدخلن قطعا من البسكوت إلى الغرفة التي تقيم فيها سعاد فدخلت غاضبة وحذرتهن لأن العقاب سيكونُ شديدا ووزعت تعليمات المؤسسة على كل غرفة وطلبت من سعاد لأنها الأكبر سنا أن تقرأها لزميلاتها.

وكانت القراءة في المكتبة أحد الأنشطة فترددت عليها وبينما هي

obeikandl.com

تقرأ في كتاب عن الصحة النفسية جلست إلى جانبها عفاف التي تقيم معها في السرير السفلي وسألتها عن نوع القرابة بينها وبين الشيخ عاصم، ثم نظرت إلى الكتاب الذي تقرأ فيه وانحنت بنظراتها نحو ساقيها وقالت متأففة:

دعينا نتسلى بدلا من هذا الكتاب، ألا تملين من القراءة؟

ثم أردفت "أرى أن لك ساقين جميلتين" وراحت تتحسسهما فأبعدت سعاد يدها بعنف وقالت في نفسها "يبدو أن الاغتصاب لا يقتصر على بعض الرجال، ولكنني لن أتركها تعبث بجسمي". وتابعت البنت "وثدياك شهيان أيضا" فصرخت فيها بغضب شديد "ماذا تريدين مني؟ لا تقتربي مني بعد اليوم وإلا أخبرت المديرة" فضحكت بمجون وأجابت:

بماذا تتسلين إذن بغير القراءة؟ قراءة، قراءة، هذه حياتك؟ لماذا لا تكونين مثل سوسن مثلا: إنها تسمح لي بالتسلية معها وتتركني أتحسس جسمها وتستمتع بذلك.

فأجابتها بنفس الحدة:

إلى هذا الحد بلغت بك القذارة؟ قلت لك إن فعلتها مرة أخرى، أخبرت المديرة.

وذات صباح وقفت المديرة على جدار أمام الفتيات وأمرتهنّ بحزم أن يأتين بورقة من مديرة المدرسة التي يدرسن فيها تؤكد أنهنّ كنّ في المدرسة حتى الساعة الواحدة ظهرا.

إذ تسامعت الفتيات أن إحداهن وتدعى عفاف ادعت أنها كانت تذهب إلى المدرسة كل صباح على حين انقضى على غيابها عنها ثلاثة أيام، وأنها تزور تاجرا للملابس النسائية. فقالت سعاد في نفسها "الآن عرفت لماذا كانت ترتدي فستانا أنيقا لا تستطيع حتى بنات

obeikandi.com

الأغنيا ارتداءه" بيد أن مديرة الميتم أرغمتها على خلعه لئلا تفسد الطالبات واستحضرت خالها ولي أمرها وطلبت منه أن ينقلها إلى مكان آخر فتساءل عن السبب في هذا القرار المفاجئ فكان جواب المديرة "ابنة اختك تتأخر بعد دوام المدرسة ولا نعرف أين تذهب وتستطيع أن تسألها في البيت" فلم ترد أن توضح له السبب لئلا تقتل بدافع الشرف ولا سيما أن جرائم الشرف صارت تتزايد وتواترت أخبارها.

وكان بين آذنة المدرسة وبين سعاد صداقة، فقالت الآذنة لها معقبة على هذه الفضيحة "بدلا من معاقبة هذه البنت وحدها لماذا لا يعاقب التاجر أيضا؟"

...

سرحت أفكار رشيد بعيدا نحو المستقبل فقد شعر أن أمامه همّين العمل والزواج من سعاد، فقد تخرج في المدرسة الثانوية وطفق يبحث عن عمل فقال له عمه إن له صديقا يعمل في عمان وهو مستعد أن يعثر له على عمل في مؤسسة الكهرباء وفيها يجد عملا غير شاق ويتقاضى أجرا معقولا يعول به أسرته.

وقالت سعاد في سرها لماذا لم يتصل بي، مضت ثلاثة أشهر لا أعرف فيها عنه شيئا.

كانت وظيفة رشيد في المؤسسة ملائمة له فأحس الاطمئنان إلى حياته ورأى أن امه واختيه ستسعدان بعمله. وقال لها ممازحا: "لم يبق إلا أن أكمل نصف ديني".

فأجابته محتدة "لم تشمّ رائحة ابطك بعد، لماذا العجلة يا ابني" وانبرت أخته الكبرى تقول: "أعرف فتاة من صديقاتي جميلة ومتعلمة مثلك" فأجاب في حزم: سأتزوج سعاد ابنة جارنا "أبو

نعيم" :

ألم تعرف عنها؟ اغتصبها ابن خالها بموافقة والدها وأمها!

المجرمون، وأين هي الآن؟

فقالت الأم:

لا نعرف عنها شيئا يقولون أنها هربت من البيت، ولو خيرتني لاخترت لك صبية من أسرة غنية، الناس الآن يبحثون عن بنات الاغنياء وانت (دقيت) في بنت ابو نعيم يقطع الفقر ويومه.

يمّا، هذه البنت التي كنت أطمع في الزواج منها ويبدو أنك نسيت المثل "اللي بتطلع لفوق بتنكسر رقبته".

المهم الآن انتهى كل شيء، فانزعها من فكرك.

...

طرق رشيد باب (ابو نعيم) وحين فتحت زوجته الباب قال لها بحدة:

عملتوها... أين ستذهبون من غضب الله؟!

وانت ما دخلك في الموضوع. البنت بنتنا اذهب ابحث عنها ان كنت تحبها.

بل سأدخلكم إلى السجن يا (مجرمين).

وأسرع إلى مخفر الشرطة ليبلغ الضابط بهذه الجريمة فأبدى غضبا شديدا وقال:

إن اغتصاب هذه البنت ينطوي على ثلاث جرائم: جريمة الشاب وجريمة أبيها وجريمة أمها.

وحين أحضر هذا الشاب مع والدي الفتاة إلى المخفر أمسك به الضابط من شعره وهدده بالقتل وقال له:

إذا قتلتك الآن لن يطالب أحد بدمك فقل لي هل اغتصبت البنت؟

obeikandl.com

لا يا سيدي.

وتضاحك الضابط وهو يقول:

سنعرف الآن من اغتصبها وبسرعة.

حين شرع يلكمه بقبضة يده صرخ متألما وقال "أريد محاميا يدافع عني ألا تتحدثون عن حقوق الإنسان؟"

حقوق الانسان، تقول حقوق الانسان؟

عجبا تتمسك الآن بحقوق الانسان كي تنقذ نفسك فلماذا لم تتذكر حقوق الانسان وانت تغتصب هذه البنت!

واستمر يلكمه بقسوة حتى سقط أرضا والدم يسيل من أنفه فسأله:

والآن هل اغتصبت البنت؟

نعم ولكن بإرادة أهلها.

صحيح؟ أهكذا تبلغ الوحشية؟

قال الضابط ثم وجه كلامه إليهما:

لماذا سمحتما لهذا الحيوان أن يغتصب ابنتكما؟

فأجابت الأم متلجلجة:

لأننا لا نريد لها الزواج من شاب تقول إنها تحبه ولكنه عاجز عن الإنفاق على بيت.

فبانت ابتسامة حزن على وجه الضابط وهو يقول:

هذه جريمة أخرى سببها المال.

ثم صرخ فيهما:

عقوبتكما ستكون شديدة أيضا وستندمان كثيرا على هذه الفعلة القذرة.

ثم أمر بإدخالهما إلى غرفة التوقيف تمهيدا للإجراءات التالية،

فبادر أبو نعيم بالقول في خجل:

لو تزوجت الآن ابن خالها لانتهى الأمر ولا داعي للفضيحة.

ولكن هل تضمن أن يندمل الجرح الذي سببته لابنتك، ثم افرض أنها لا تريد الزواج من حيوان اغتصبها فهل تريد أن تستر هذه الجريمة بجريمة أشد بشاعة؟ ثم ألم تسمع هذا الحيوان وهو يتحدث عن حقوق الإنسان؟ فأين حقها الإنساني في اختيار من تحب؟

ورأت سعاد نفسها بعين الخيال تميل برأسها على صدر حبيبها تحت شجرة الزيتون ذات الغصون الممتدة وتقول له "وأنا أيضا أحبك" وغاب الاثنان في قبلة حارة وحين امتدت يده إلى داخل صدرها انتفضت في رعشة لذيذة إلا أنها أزاحت يده في رفق وقالت بصوت عالٍ قليلا "ليس الآن" ويجيبها "فرصة لماذا لا نقتنصها."

ماذا يبقى من جسمي لك عند الزواج؟

...

كان الشيخ عاصم جالسا في مكتبه بالمحكمة الشرعية حين جاءه الفرّاش وهمس في أذنه أن رجلا يريد مقابلته فطلب منه أن يستمهل الرجل عشر دقائق ريثما ينهي معاملة نفقة لامرأة مطلقة. وقال لزوجها كم تستطيع أن تدفع لها كل شهر:

سيدي أستطيع أن أدفع لها مئة دينار إن دخلي محدود كما تعلم فلست تاجرا ولا صاحب مصنع.

فرد الشيخ عاصم مستضحكا:

إذا كان راتبك محدودا فكيف تنجب ثلاثة أبناء في خمس سنوات؟ ولو لم تقم بتطليقها فكم ابنا سيكون لك بعد ثلاثين سنة؟

ودخل الضيف مكتب الشيخ فرحب به قائلا:

أهلا وسهلا

بكم أيضا حضرة الشيخ... لا أريد أن آخذ من وقتكم كثيرا وأرى أن أعرفكم بنفسي أولا، اسمي جمال معضاد وأعمل موظفا في مصلحة الجمارك.

تشرفنا يا أخ جمال. ما طلبك الآن؟

في ذهني فكرة تتردد كثيرا وأرى أنكم جديرون بتنفيذها وهي إقامة مركز للدراسات الدينية لأن مفاهيم الدين اهتزت لدى كثير من الناس إزاء حركات الإلحاد ولا سيما الشيوعية بتأثير الاتحاد السوفياتي، وقد كنت فيما مضى شيوعيا واحتملت السجن في الجفر خمس سنوات ثم طلبت منا الحكومة أن نعلن ولاءنا للملك حسين كي يفرج عنا فرفض بعضنا ووافق آخرون وأنا منهم. ومن خلال قراءاتي الدينية عدت إلى جادة الإيمان ثم ذهبت إلى السعودية وعملت فيها عدة سنوات، فازداد إيماني وحين عدت بنيت عمارة من ثلاثة طوابق وأنا الآن بعد تقاعدي من العمل هناك، أنفق وقتي في التعمق في الدين.

ما شاء الله فقد آمنت بالله في النهاية ولا شك أن من يتكل على الله يجدْ له مخرجا، وأنا يا أخي مهتم شخصيا بمثل هذه المراكز غير الحكومية التي تعمل بنشاط، حتى إن بعض أساتذة الجامعات كما سمعت استقالوا والتحقوا بهذه المراكز لأن الأجر يزيد كثيرا على أجورهم في التدريس رغم إن بعضهم سخر منها وقال أنها مراكز تجارية كالدكاكين ليس إلا.

ثم صمت قليلا قبل أن يستكمل حديثه:

أنا موافق من الآن، ولكن ما هي نقطة البداية؟

فأجاب بعد لحظة صمت:

نبدأ باستئجار مكتب ثم بالاتصال بالمؤسسات الأوروبية غير

الحكومية لدعمنا وذلك بعد أن نعرض عليها برنامجنا ونركز في هذا الشأن على حقوق الإنسان.

فردّ الشيخ عاصم ضاحكا:

رأيت امرأة أوروبية في برنامج تلفزيوني تداوي جراح تمساح وهي تذرف الدموع على حين لم تلتفت إلى أطفال جياع ظهرت عظام أقفاصهم الصدرية.

ما رأيكم في أن نزور دول الخليج لنعرض عليها بناء بعض المساجد لأن الناس ازدادت أعدادهم ولم تعد المساجد الحالية تتسع لهم.

هذا أمر مهم جدا أيضا ولا شك في أن هناك أفكارا كثيرة يمكن أن ننفذها بإذن الله.

...

فقد نشط جمال معضاد في عدد من الجمعيات الاجتماعية بالإضافة إلى عمله في المقاولة والبناء في السعودية فجرى المال بين يديه. وكانت زوجته لا تَني تذكره بأيام سجنه وما عانته هي وابنتها من قسوة الحياة.

إذ حين خرج من سجن الجفر بادرها بالسؤال " هل أتى أحد الرفاق إليك وقدم كيلو بندورة مثلا؟ "

لا لم أر أحدا من رفاقك يا شاطر... قلت لي يوم اعتقلوك أن الرفاق سيتكفلون بمعيشتكم:

ثم أردفت:

لقد تكفلوا بنا على أكمل وجه يا شاطر حتى إنهم لم يكلفوا أنفسهم أن يسألوا عن صحتنا. وقال في نفسه " ضحيت بما فيه الكفاية وآن لي أن أعوض زوجتي وابنتي عما كابدتاه من تعاسة، حبستني الحكومة فهي مأمورة من الخارج، أما أن يتخلّى عني الحزب فأمر

openkandil.com

شنيع".

وما عتم أن جاء إلى البيت شابان عليهما ثياب تفتقر إلى الهندام، طرقا الباب ففتح لهما وبادراه بالتهنئة بسلامة الخروج من السجن ثم طلبا منه صورة كي يثبتاها في كتاب يضم المناضلين فأسرعت زوجته إلى الخزانة وقدمت لهما الصورة فتأملاها معجبين ثم قال أحدهما بعد تردد: هل لك أن تعطينا عشرة دنانير ثمنا لنشرها فاتسعت عيناه في غضب وشتمهما قائلا "نصبوا عليّ واقتطعوا خمس سنوات من عمري والآن تأتون لتكملوا عملية النصب أسرعا بالخروج يا نصابين" قبل أن "أهري" بدنكما بهذه العصا."

...

obeikandl.com

5

شعر التاجر بخيبة الأمل إذ أدرك أن عفاف أفلتت من بين يديه، بيد أنه ما إن مضت أسابيع حتى أحس سعادة غامرة وهو يراها تتقدم نحو متجره بخطى حذرة "وأخيرا عادت المهرة إلى حضني" قال هذا في نفسه، فاصطحبها إلى الطابق الثاني وراح يعتصر جسدها ويفيض عليها من شبقه وقتا غير قصير كعطشان وجد ماء بعد طول بحث وتفلتت منه بصعوبة وهي تقول "أرجوك سآتي إليك كلما استطعت."

لا أستطيع العيش بدونك.

ولا أنا أيضا

ونظرت إلى الفساتين المعلقة:

هل أستطيع أخذ الفستان الأزرق

طبعا خذي ما شئت من الفساتين وليس في ذلك خسارة رغم أن ثمنه ثلاثون دينارا وهو را تب عاملة في مصنع للنسيج مدة شهر كامل.

obeikandi.com

إذن هل تستطيع أن تعطيني ثمنه لأنني أخشى أن تكتشف امرأة خالي علاقتي بك؟

فأخرج من جيب بنطاله المبلغ وهو يقول:

أنت تساوين الملايين عندي.

وأعطاها المبلغ فخرجت مسرعة والبهجة تطل من عينيها. فقد تنبهت إلى خطأها السابق حين ارتدت الفستان الذي أعطاها إياه فلفتت الأنظار لأنه مرتفع الثمن وكان الطرد من الميتم عقابا لها.

...

استقبلت الأم ابنها الشيخ عاصم بسعادة، فقد مضى على غيابه في نابلس خمسة أشهر. ثم قالت له معاتبة:

لم تكن تتأخر عليّ قبل زواجك هذه المدة الطويلة.

لا أتعمد التأخر ولكنها المشاغل. لديَّ الآن بيت وطفل من ينسى أمه يكون نذلا وأنا لست كذلك كما تعلمين.

حاشاك يا ابني وأنا أمزح فقط فأنت وأخوك كل ما لديّ في هذه الدنيا.

وما أخبار رؤوف؟

بخير وهو ينتظر مولوده الثاني وسيكون طفلا هذه المرة

تلومينني أنني لا أتصل بك كثيرا ولا تلومينه فهو قلما يتصل بي.

الحق يا عاصم أن أخاك لا يكف عن لحديث عنك ويتمنى لك التوفيق، أبقاكما الله لي. يكفيني من هذه الدنيا أن تنعما بصحة جيدة وأن تكون علاقتكما العائلية متينة كل مع زوجته وماذا يريد الإنسان غير الصحة والسعادة له ولأولاده وأحفاده. أليس كذلك؟

طبعا، والحق أن زوجتينا طيبتان وقد وفقنا الله فيهما. ثم جلست

الأم وابناها وزوجة رؤوف على مائدة الطعام الصغيرة وقالت الأم:

أعددت لكما الطعام الذي طالما أحببتماه حين كنتما صغيرين فأسرع رؤوف يقول "الششبرك أكيد".

أصبت، قلت في نفسي إن نساء اليوم لا يحسنّ طبخه.

فقالت زوجة رؤوف:

إنه يطالبني به دائما إلا أنني لم أتقنه بعد والبركة فيك.

سأعلمك إياه في الأيام القادمة بعد أن تقومى على السلامة من الميلاد، وهي طبخة بسيطة لا تحتاج إلى مهارة فائقة.

وبادر الشيخ عاصم أخاه ممازحا بعد أن جلسا لتناول الشاي.

هل مازلت علمانيا؟

طبعا ولن أتغير إلا إذا بدلت جلدي، فلست كالأفعى، ثم أردف:

علي أن أحترم رأي كل إنسان متدينا كان أم ملحدا لأنني أعلم أن الاختلاف هو الأساس في الطبيعة أم هل رأيت في حياتك شجرة تشبه الأخرى؟ وأردف مبتسما: فأنا كما ترى أطبق حقوق الانسان أيضا.

وتدخلت الأم بالقول:

يعني إذا اختلفتما في السياسة هل توقفتما عن أن تكونا أخوين؟ طبعا لا!

أجاب الاثنان بصوت واحد

وقال الشيخ عاصم وهو يتأمل حي الشراقة من الشباك:

سقى الله أيام الطفولة، كانت جميلة رغم ما عانينا من فقر، ولكن ما هذه العمارات التي بدأت ترتفع وكأن حي الشراقة قد أخذ يتضاءل؟

وانبرى رؤوف يقول:

بل إن وجوه الناس في هذا الحي قد تبدلت فقد هاجر الكثيرون من

أهله إلى أمريكا وحل محلهم أناس جدد جاءوا من خارج رام الله حتى قال لي أحدهم "أهل رام الله عمرّوا أمريكا ونحن عمّرنا رام الله."

ولمن هذه الفيلا التي تقام في نهاية الشارع؟

تساءل الشيخ عاصم ثم قال:

هل تذكر شجرتي التوت والجوز اللتين كانتا في أرضها؟ كثيرا ما أطعمنا صاحبها منهما... خسارة، تبدو الأرض باقتلاعهما مثل صحراء، وأظن أنه بعد قليل ستختفي الأشجار في رام الله لتحل محلها المنازل الحجرية، ولكن تبدو هذه الفيلا كبيرة في مساحتها ترى لمن؟

فأجاب رؤوف:

لعله من المقاولين الذين ازدهر عملهم في اسرائيل بعدما أغرت الفلاحين بترك أراضيهم ليعملوا في مصانعها.

إنهم الآن ينعمون بالبحبوحة ولكن ماذا سيحل بهم حين يمنعون من العمل عندهم؟ أرى أن عملهم اليوم أشبه "بجمعة مشمشية."

وسمعت أن أصحاب المصانع في اسرائيل جدّدوا مصانعهم ووسعوها بفضل احتلالهم فنحن خير سوق لبضائعهم.

ثم استدرك رؤوف قائلا:

هذه الفيلا لرجل قيل إنه باع أولاده الأربعة لأحد الأمريكان وأسس فندقا قرب (المنارة) وها هو يبني الفيلا.

وهل يباع الأولاد؟ من يبيع ابنه كمن يبيع نفسه، الحيوانات تموت وهي تدافع عن أولادها.

وأطرق الاثنان ساهمين قليلا...

ثم قال رؤوف:

اسمع أيضا، هل تعلم أن إحدى المؤسسات الحكومية تضم موظفين

ينتمون إلى نفس القرية تقريبا؟

لعل المسؤولين لم يجدوا أكفأ منهم في قرى فلسطين!

وضحك الاثنان. وهنا قال الشيخ عاصم مستدركا "سأذهب الآن إلى اجتماع مركز الدراسات الدينية، لنناقش بعض الأمور ثم أعود." ووقف بباب الغرفة كي يودع أمه فدعت له بالسلامة وكانت تحمل قطعة قماش تمسح بها الغبار.

...

قالت أم رشيد لابنها:

إذا كنت مصرا على الزواج من سعاد فانس أن لك أُماً فتقدم منها وجلس إلى جانبها على الأريكة الصفراء القاتمة وقال لها بصوت هادئ:

يا أمي، لقد أحببت هذه البنت منذ أن كنت في الصف العاشر ولا أستطيع الآن أن أخذلها في محنتها بل إن محنتها لإصرارها على رفض ابن خالها وسأذهب غدا إلى الشيخ عاصم في نابلس كي يساعدني لعله يعلم بمكان وجودها هناك إذ أُخبرت أنها في هذه المدينة.

فما إن حطت السيارة في وسط المدينة حتى أسرع إلى المحكمة الشرعية وانتظر أمام الباب ريثما يفتح إذ كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف وشعر أن ما بقي من دقائق قليلة كأنها ساعات.

واستقبل الشيخ عاصم وهو يخطو نحو الباب فتعانق الاثنان ولم يُخفِ الشيخ عاصم دهشته لمجيئه مبكرا، وقرأ رشيد ذلك في ملامح وجهه فقال له:

جئت يا شيخ عاصم مستنجدا

خير إن شاء الله

لا أجد خيرا منك في مساعدتي في العثور على سعاد.

opeikangroo.com

هذا واجبي. أما سعاد فأنا أعرف مكانها وأعرف مشكلتها، والآن تعال معي إلى المكتب كي نتحدث في الأمر.

وقال رشيد "يا شيخ عاصم أنا سبب المشكلة والضحية أيضا إلى جانب سعاد فقد رفضت الزواج من ابن خالِها لأنها تصر على الزواج بي فكان ما كان من أمر اغتصابها وسيلقى المجرمون جزاءهم بإذن الله، وأنا الآن أرغب في الزواج منها لأن والدها لم يعد يصلح أن يكون وليا لأمرها كما تعلم."

الأمر يسير شرعا يا أخي، ولن يحصل إلا ما تحبان إن شاء الله.

...

وفي طريق العودة من نابلس كان رشيد وسعاد يجلسان معا في السيارة التي أخذت تصعد بهما الجبال المكسوّة بأشجار الزيتون الزاهية الخضرة وبالصخور، في طريق واسعة مُسفْلتة، وهنا قالت سعاد وهي تمسك بيد رشيد:

أوشكت أن أيأس من مجيئك.

فأجاب وهو يضغط يدها برفق:

الرجل حين يحب بصدق لا يمكن أن يخدع من يحبها.

وحين مالت السيارة عند المنعطف التصق الجسدان بحرارة وظلا على هذه الحال حتى بلغا رام الله.

. . .

obeikandl.com

6

حين بدت صحة أم رؤوف تتراجع بسبب التقدم في السن كان يطيب لها أن تغادر غرفتها فتجلس أمام الباب تتأمل الشجرتين اللتين كبرتا والعصافير تتقافز على الأغصان وتصغي إلى تغريدها، وحين يعنّ لها أن تسير نحو المنارة وشارع الإرسال كانت تستعيد صورته يوم كانت تحف به أشجار السرو فتأسف لغياب ذلك المنظر الجميل إذ حلت العمارات الحجرية محلها وكان يسرّها أن يدعوها الناس بالحاجة. غير أن صحتها ازدادت اعتلالا فلم تعد تبرح البيت ولا سيما أنها كثيرا ما ضلت طريقها إذ بدت بوادر فقد الذاكرة تظهر عليها واستوقفت ذات يوم سيارة تكسي وطلبت منه أن ينقلها إلى حارة فانوس بالرملة فضحك السائق وسألها هل تمزح أم أنها جادّة ليتأكد من سلامة عقلها فأجابت "بل جادّة" فما كان منه إلا أن طلب منها أن تغادر السيارة إذ أدرك أنها تهذي وعندما ازدادت حالتها سوءا قرر ابناها أن لا تغادر منزلها وأعطيا المفتاح إلى أم صالح فكانت تصغي

obeikandl.com

إليها وهي تحدّثها عن طفولتها في مدينة الرملة فتقول في نفسها "كنت مش قليلة يا أم رؤوف!" وذلك حين أخبرتها أن ابن جارهم (رأفت) قبّلها ذات يوم في مدخل الحارة وهما عائدان من المدرسة الابتدائية فلطمته إلا أنها أحسّت بقشعريرة لذيذة وتمنت أن يعود إلى فعلته في الأيام التالية فلم يفعل وقالت لها: "كان جبانا!" فردّت أم صالح ضاحكة:

لماذا لم تقبّليه أنت إذن؟

فشهقت كطفلة رأت عقربا وقالت:

لا يجوز أن تفعل البنت ذلك... عيب يا أم صالح، عيب! ماذا كان الناس سيقولون عني؟!

ومضى شهران وأم رؤوف داخل منزلها لا تغادره وقد تكفّلت زوجتا ابنيها بتوفير طعامها إلا أن زوجة الشيخ عاصم قالت له:

آن لنا أن نبحث عن حل لمشكلة أمك فنحن كما تعلم لدينا أسرتان وليس من السهل أن نترك أنا وزوجة أخيك منزلينا لنزور أمك يوميا.

فأجابها مقطبّا:

ماذا تقترحين؟

في القرية المجاورة ملجأ يقال إنه نظيف والعناية بالمسنين ممتازة.

سنسأل عنه فإن كان كما تقولين فلا بأس في أن تقيم فيه.

واستشار أخاه في ذلك فأيّد رأيه فذهبا إلى الملجأ فبهرهما بناؤه وشدّهما جمال الطبيعة التي تحيط به ثم تقدم الشيخ عاصم من الراهبة المسؤولة وعرّفها بنفسه وبأخيه فرحّبت بهما واصطحبتهما في جولة داخل الملجأ فتأكدا مما سمعا عنه واتفقت معهما على

إحضار أمهما بعد أسبوعين ريثما تفرغ الموظفات من تنظيف الغرفة التي خلت بوفاة إحدى النزيلات.

وراح الأخوان يستعدان لنقلها وأبدت الزوجتان اهتماما بنظافتها ونظافة ثيابها وما ان انقضت أيام حتى رنّ جرس الهاتف في مكتب الشيخ عاصم وكانت المتحدثة أم صالح فسمعها تقول بصوت متهدج:

يؤسفني أن أخبرك أن أمك قد توفيت فقد وجدتها ملقاة على الأرض والدم يسيل من فمها.

فأسرع الشقيقان إلى منزلها ومعهما الطبيب ففحصها وأعلن وفاتها.

وقال رؤوف لأبي صالح بعد انتهاء العزاء:

تفضل هذا مفتاح البيت وأرجو أن تتفقده ونحن على استعداد لأي إصلاح تراه ضروريا، فأجاب في حزن:

كنتم جيرانا أعزاء وكانت أمكم نعم الأخت لأم صالح والحمدلله على كل حال.

...

أخذت وجوه جديدة تظهر في شوارع رام الله لأناس وفدوا إليها وشاهد الناس سيارات فارهة لا يُرى من بداخلها لسُمك الزجاج. وفي الفندق الذي يعمل فيه رؤوف كان الحجز كثيفا فقال في نفسه "الحمدلله بشائر الرخاء هلّت" . وتعرّف إلى أحد النزلاء بعدما عرف أنه قادم من دولة عربية فقال له " نرجو أن يكون قدومكم خيرا على هذا البلد، فأجاب " سنقيم مصنعا لقطع السيارات يُغني عن شرائها من الخارج وسيكلف المشروع خمسة ملايين دينار. "

ما شاء الله ولا بد من أن توظفوا عددا لا بأس به من العمال ؟

openkandil.com

طبعا

ثم ودّعه وجلس في حديقة الفندق ودخلت على الأثر فتاة سألت عنه فدلّها رؤوف على مكانه وقال في نفسه "يبدو أنه سيكون لبعض الفتيات عمل مثمر" ثم جاءه النادل يقول "طلبت الفتاة فنجانا من النسكافيه". وما لبث نزيل الفندق أن اصطحبها في سيارته. وقبيل انتهاء العمل في المساء سأل رؤوف المحاسب "هل دفع الذين في الحديقة حسابهم؟ أجاب "بعض الفواتير لم يتم دفعها بحجة أن أصحابها سيعودون بعد قليل." فذعر رؤوف وقال في نفسه "لا حول ولا قوة إلا بالله هل جاءوا ليأكلوا ويشربوا مجانا! والأدهى أنهم من المسؤولين، فهل كانوا يفعلون ذلك في الخارج؟!" وعندما أبلغ مدير الفندق بأمرهم قال "عرفت هذه النوعية من الناس وأنا أشك في أن الكثيرين منهم جاءوا مدفوعين بمشاعر وطنية."

...

كان الغداء الذي أعدته زوجة الشيخ عاصم مقلوبة بالباذنجان مع لحم الضأن الدسم الذي يحبه مع أنها ترغب في لحم العجل. وقد رأت أن تساير زوجها لئلا يغضب، ثم جلسا يشربان الشاي على البلكون المطل على حديقة الجيران والمغطى من جوانبه الثلاثة بالزجاج السميك ذي النتوء، فبادرته وهي تتصنّع الضحك "ما رأيك لو تخفف من شعر لحيتك فإنها تؤذي خدي فنكون مثل أبي حسان جارنا أو مثل أبي فتحي وغيرهما من أزواج صديقاتي؟"

ولكنها سُنّة يا وداد

اعرف يا حبيبي إلا أنني لا أحب أن تكون مختلفا عن هؤلاء وقد أصرّ الشيخ عاصم على المحافظة على لحيته الكثّة فترة من الزمن ثم اضطر إلى جعلها غير واضحة تحت ضغط الزوجة مما أثلج صدرها

وقالت في نفسها "لو أستطيع خلع الحجاب مثلما تفعل أختاي وسِلفتي لأن من تُكره على الحجاب لا ثواب لها فيه ثم فاتحت زوجها في الأمر فأرغى وأزبد وبدا كتلميذ كان يتوقع النجاح في الامتحان فرسب".

لحيتي تخففت منها كثيرا، والآن تريدين خلع الحجاب فكيف أكون قدوة حسنة للناس في هذا الشأن..لا، هذا كثير يا وداد ولكنك تستطيعين أن تخلعيه حين تجلسين إلى أهلك فهذا أقصى ما أقدر عليه.

ولكن سلفتي غير محجبة أيضا.

لا أحب أن أتشبه بأحد ولو كان أخي ... هل فهمت؟

وسمع الطفلان وأختهما حديث الأبوين واجمين فخشوا أن يتطور الحديث إلى شجار فجلسوا في غرفة الجلوس كقطة تسلقت شجرة هربا من كلب يلاحقها. ثم تقدمت المرأة من زوجها وقبلته بحرارة وهي تقول:

كما تريد يا حبيبي، لا تقلق... إنس الموضوع

...

وتساءل أبو صالح في سره بحزن "أين ما نحن عليه الآن من تباعد بين الناس مما كان زمن الانتفاضة الأولى فها هم الأغنياء يتنافسون في جمع المال وقلة منهم تستأثر به، والفقراء يتهافتون على الوظائف بحثا عن عمل يعجز مردوده عن دفع إيجار البيت والفواتير الشهرية".

"اذ حين صدر البيان الأول للانتفاضة الأولى اهتزت الأرض تحت أقدام الاحتلال الإسرائيلي وانصرف طلبة المعاهد والجامعات إلى مقاومته بالحجارة وانخرطت كثير من النساء في لتصدي لجنوده

وانتقلت المحلات التجارية إلى البيوت بعدما أغلقت في الأسواق العامة كما اعتمدت النساء على الأفران المنزلية البدائية وانصرف لناس إلى زراعة أراضيهم وأنا منهم بعد ما أهملوها سنوات طوالا وهم يعملون في اسرائيل ونشطت المصانع واتسع عملها لأن البضائع الإسرائيلية منعت من دخول المدن."

كان ابن الشيخ عاصم قد بلغ الثالثة عشرة في مطلع الانتفاضة الأولى وطفق يشترك في قذف الدوريات الإسرائيلية بالحجارة وذات يوم تأخر عن المجيئ إلى البيت مما أثار قلق الأبوين والجيران وجاء بعد قليل جارهم أبو سفيان يمشي حذرا والتعب باد عليه، فسأله الشيخ عاصم من أين أتى فأجاب بعد أن حيّاه باقتضاب:

كنت أزور ابنتي وأبناءها للاطمئنان وأخذت لها بعض الحاجات لأن زوجها يعمل في عمان كما تعلم ثم أردف:

على فكرة، رأيت ابنك يدخل منزل (أبو حمدي) وكان يعرج قليلا.

فاشتد قلق الشيخ عاصم وسأله في لهفة:

كيف نستطيع الاتصال به؟

ففكر الرجل قليلا قبل أن يجيب:

الأمر ليس صعبا سأتصل بابنتي لترسل من يطمئننا عليه.

وما هي إلا أن اتصل ابنه به وطمأنه فطلب منه أن يبقى في منزل هذا الرجل إلى الصباح.

الحمدلله

قالت زوجة الشيخ عاصم وعقبت "ابننا مع الأولاد في الشواع وأبناء (أبو كمال) جارنا يدرسون في لقدس ولا يعنيهم أمر الانتفاضة من قريب أو بعيد".

فتضاحك أبو طلعت، وهو رجل متقدم في السن اشترك في معارك

يافا سنة 1948 وهاجر إلى بيروت ثم عاد إلى نابلس، وقال: "بل كثيرا ما سمعته يحث الناس على مواصلة الانتفاضة تماما مثلما حدث سنة 1948 فقد شكل زعماء يافا لجنة تحث الناس على عدم الرحيل إلا أن جيراني أغروني بركوب السفينة معهم إلى بيروت ريثما تهدأ الأمور كما أملتنا الجيوش العربية. وحين كنت أسير في ساحة الشهداء ببيروت رأيت بعضا من أعضاء تلك اللجنة قد رحلت قبلنا. "

وقد فوجئ الشيخ عاصم بعد أيام أن ابنه سامر أصيب برصاصة مطاطية في رجله مما جعله يعرج قليلا، فقد كان منزله قريبا من الشارع الذي يتفرع عن الشارع الرئيس وكان ابنه يلتقي بأولاد الحارة الذين أخلى الفراغ بحياتهم لأن المدارس مغلقة فكانوا يتربصون بالدوريات بزعامة صبي في السادسة عشرة كان يقودهم وكانت كلمته هي المسموعة رغم نصائح الآباء بعدم مواجهة الجنود لأنهم سيكونون الخاسرين أمام بنادقهم، وقد صحّ قولهم عندما استشهد صبي تصدى بصدره لأحد الجنود متحديا وقذفه بحجر أصاب وجهه فما كان منه إلا أن أطلق عليه النار فسقط يتخبط في دمائه.

وما إن سمع رؤوف بإصابة ابن أخيه حتى أسرع إلى نابلس وألح على الشيخ عاصم أن يطلب الانتقال إلى رام الله ليكون الأخوان والأسرتان على مقربة إحداهما من الأخرى مما أثلج صدر الزوجة لأنها تريد هي الأخرى أن تكون قريبة من أهلها ولا سيما أمّها.

جو نابلس الاجتماعي مريح والعلاقة بين الأسر حميمة أما أنت يا أخي فلا أقرباء لك فيها.

قال رؤوف ذلك وهي يحتسي فنجان الشاي فردّ الأخ:

openkanar.com

حقا ما تقول ولكن لي أصدقاء باتوا أقرب إليّ من الأهل

ثم استدرك:

على أيّة حال، فإذا كنت ترغب في أن أنتقل إلى رام الله فسأعمل على الانتقال في أقرب فرصة.

وتابع رؤوف:

هذه الانتفاضة يا أخي قد طالت وبات بعض الناس يتذمرون، فهذا ابنك لا عمل له سوى الالتقاء بأصدقائه والانقياد الأعمى لهم على حين غادر نابلس كثيرون من طلبة المدارس إلى عمان ليلتحقوا بمدارسها وأولئك يستطيع آباؤهم الإنفاق عليهم في الأردن. أما أنت فمن أين لك المال كي تفعل مثلهم ولا أرى طائلا من هذه الانتفاضة بعد أن طالت وليس المهم أن يسجن ابنك لأنه سيطلق سراحه بعد مدة ولكن ماذا تفعل لو أصيب ظهره بالشلل لا سمح الله، ومن سيعتني به عندئذ وإذا استشهد من سيفقده سواك وسواي.

وسادت بينهما فترة صمت قبل أن يبادر الشيخ عاصم بالقول:

بالنسبة إليّ أرى أن الوطن بحاجة إلى كل منا بلا استثناء ولكن الذي يثبط العزيمة أن الفقراء وحدهم هم الذين يضحون في هذه الانتفاضة أما قادتها فيرسلون أبناءهم إلى أمريكا للدراسة مع أنهم يشتمونها صباح مساء وسيأتون بعد سنوات يحملون شهادات الدكتوراة ليتحكموا في اقتصاد البلد مع الأثرياء.

فضحك رؤوف وهو يهزّ برأسه وقال:

أما أنا فإن مشكلاتي التي تزدحم في حياتي لا تدع لي مجالا للتفكير خارج إطارها.

...

7

ما زالت زوجة رؤوف تزور الأطباء بين الفينة والأخرى من أجل أن يساعدوها على الحمل، فقد أنجبت بنتا وولدا وتريد أخا لابنها فعجز رحمها عن تكوينه. وذات يوم ذكرت لها أختها أن امرأة عجوزا تتعامل مع الأرواح وتدعى المباركة لأعمالها التي تشبه المعجزات ولا سيما بالنسبة إلى الحمل، فحدقت إلى النافذة قليلا ثم ردّت قائلة:

زوجي يا أختي يرفض هذه الأمور ويعدها من الخرافات

لا داعي لأن يعرف وسأصحبك إليها لتعرفي حقيقتها.

فدخلتا منزل المباركة وهو يتكون من غرفة ومطبخ وكانت الغرفة شبه معتمة فما زالت العجوز تعتمد على مصباح الكاز. فرحبت بهما وحاولت أن تشعل (بابور) الكاز لتصنع لهما كأسين من الشاي فرفضتا ورضيتا أن تجلسا على كرسيين مخلعين لهما مسندان مهتزان فلم تستطيعا الجلوس مخافة السقوط. وكان سقف الغرفة داكنا وحجارته بارزة وكأنها تتهيأ للانهيار، وفيها نافذة كالثقب

obeikandl.com

تطل على الشارع وقد غطتها بقطعة قماش مهترئة.

وأبدت العجوز استعدادا لمساعدتها على الإنجاب حين تزورها في بيتها، فتساءلت الزوجة "ألا يمكن أن تساعديني دون أن تحضري إلى منزلي؟" فضحكت وهي تجيب:

لا يا عزيزتي لا يكتمل عملي إلا إذا مسحت جسدك بزيت الزيتون وقرأت عليه بعض العبارات التي تعرفها الأرواح من أصدقائي

فاتفقت معها أن تزورها صباحا بعد يومين لأنها مشغولة بمواعيد مع سيدات أخر.

وفي الموعد المحدد قرعت الباب ففتحت لها المرأة وأدخلتها إلى الحمام حيث تعرت أمامها وراحت العجوز تدلّك صدرها بزيت الزيتون وتضغط نهديها كي تتمكن من أن تدّر الحليب حين تلد كما قالت، وقضت بعض الوقت على هذه الحال قبل أن ترتدي المرأة ملابسها وتنقدها بعض المال. ثم خرجت العجوز وأخبرتها أنها ستزورها سبع مرات ولم تنس أن تقبلها بحرار ة وتحتضنها.

على أن زوجة رؤوف أحسّت بخيبة أمل شديدة حين لم يظهر عليها حمل في الأشهر الأربعة التالية، فاقترحت عليها أختها أن تصحبها إلى طبيب قدم حديثا وتخصّص في قضايا العقم، وحين علمت أنها حامل امتلأت فرحا وراحت تذيع فضل الطبيب بين نساء المدينة اللواتي كانت تلتقي بهنّ وهكذا ولدت ابنتها الثانية فسعدت بمقدمها وإن كانت تأمل أن تنجب أخا لابنها. وقال لها رؤوف:

نرجو من الله أن يباركنا بهذه الطفلة. ثم طبع على وجنة زوجته قبلة حارة وضمها إلى صدره في سعادة.

وما إن انقضى عامان على ولادة الطفلة الثانية حتى استقبل الأبوان طفلهما ماجد، وقد أطلقا عليه هذا الاسم إحياء لذكرى شقيق

الأم الذي خرّ صريعا بحادث سيارة إسرائيلية داسته وظلت مسرعة دون أن يعمل السائق على إنقاذه.

...

سرى في لمدينة بعد سنوات خبر أثار مشاعر الخجل لدى كثير من النساء"؛ فإن العجوز المباركة التي كانت تزورها لم تكن سوى رجل انتحل شخصية امرأة. وقيل أن رجلا طلق امرأته بعد ان انتشر الخبر، لأنه كان يعلم أن العجوز كان يزور زوجته ويدلك جسدها، أما زوجة رؤوف فتنفّست الصعداء لأن زوجها لم يعلم بأمر زياراته الصباحية لها.

...

اتصل جمال بالشيخ عاصم من مكتبه بمركز الدراسات الإسلامية وأخبره بالرسالة التي وصلت بالبريد من دولة قطر وطلب منه أن يحضر عصرا ليطلع على مضمونها وذكر له أنه سيبلغ الأعضاء الآخرين، فقال الشيخ عاصم وهو يترجح بين التفاؤل واليأس:

خيرا إن شاء الله

كل شيء بإذنه، ولا ضرورة لإطالة الحديث على التلفون

كان الطقس باردا والضباب يغطي سماء رام الله، ولولا أهمية الاجتماع لما غادر المنزل، ثم أخذ مكانه خلف الطاولة وهي صغيرة مستديرة وحولها أربعة كراسي ومنضدة عليها منفضة، فسلّمه جمال الرسالة فامتعض لقراءتها ثم أعاد قراءتها بصوت مرتفع كي يسمع الآخرون ثم سألهم وهم خمسة أعضاء:

ما رأيكم فيها؟ لأن من الواضح أنهم لا يتعاملون مع مؤسسات خاصة بل مع وزارة الأوقاف

فقال جمال بصوت حزين:

أرى أن نجمّد عمل المركز ريثما نفكر في برنامج آخر نخدم به مجتمعنا.

واستضحك الشيخ عاصم معقّبا:

كثيرون هم الذين يخدمون مجتمعهم أو يدّعون أنهم يخدمونه من خلال عشرات المراكز الدراسية التي أصبحت كالدكاكين. أما نحن فيمكننا أن نخدم الناس بتفقيههم في دينهم.

...

فكّر القس ميخائيل كيف يفاتح جاره "أبو سمير" بعدما كثر صراخه في منزله وإقدامه على ضرب زوجته، فانتظر عودته إلى المنزل بعد الظهر وسأل عن مبعث هذه المشكلة الحادة التي تخرجه عن طوره، فرد الجار:

أهلها هم السبب، يتدخلون في حياتنا ويوجهونها كما يريدون

فقال القس:

هل أستطيع مساعدتكما؟

فأجاب في هدوء:

كثيرون حاولوا قبلك ولكن دون نتيجة.

هل تقبل زيارتي مع الشيخ عاصم لأنه قاضي المحكمة الشرعية ولعلكما تجدان عنده الحل الذي يصلح حالكما؟

أهلا وسهلا ولكن أرجو أن تخبراني بموعد الزيارة فضحك وهو يقول:

بالتأكيد وهي فرصة نبدأ فيها بالتزاور بعد أن تضاءل التزاور بين الجيران في هذه الأيام.

وفي صباح اليوم التالي كان الشيخ عاصم يستقبل صديقه القس ميخائيل في مكتبه وحين استغرب مجيئه في مثل هذا الصباح الباكر،

قال باسما:

لعلك نسيت أنني كنت أناديك أنت ورؤوف مبكرا كل صباح كي نلعب في الحارة.

إذا هذه عادتك التي تلاحقك إلى هذ اليوم وضحك الاثنان، ثم بادره القس:

لعلي لا أطيل عليك فأمامك ملفات كثيرة كما أرى، إلا أن لي جارا دائم الشجار مع زوجته وقد رغبت في التدخل بينهما لإصلاح علاقتهما كي لا يصل الأمر بهما إلى الطلاق لا سمح الله، وقد ذكرت له أنني سأزوره معك لئلا يجد حرجا في المجيء إلى مكتبك هنا.

وحين استقر المجلس بهم في منزل الرجل، حاول الشيخ عاصم أن يستوضح عن سبب الشجار المستمر بينه وبين زوجته ثم استدعى الزوجة وسألها السؤال نفسه فشرعت تبكي وتقول:

زوجي رجل طيب ولكنه سريع الانفعال ويكره الحوار

هذه المشكلة بسيطة يا أختي ما دام زوجك يوفر مطالب البيت

الحقيقة أن إمكانات زوجي أحيانا قليلة وأستعين بأهلي بين الفينة والأخرى

لا بأس في ذلك وعليكما أن تراعيا مشاعر بعضكما بعضا وأن يسود بينكما الاحترام كي تهدأ نفوس أبنائكما

ثم عرج الشيخ عاصم على منزل صديقه القس ليحتسي كأسا من الشاي ويستعيد معه ذكريات الطفولة، وبادره القس ميخائيل "ماذا تظن السبب الرئيسي في خلاف هذا الجار مع زوجته؟"، فأجاب: "يبدو أن عجزه المالي عن تلبية حاجات الأسرة سبب مهم لأن المرأة تستعين بأهلها ليساعدوها في هذا الشأن." وهنا قال القس "لا أخفي عليك أنني أعاني من ازدياد عدد الفقراء في كنيستي أيضا."

وعقب الشيخ عاصم "علمت أن إحدى حفلات الزواج كلفت صاحبها خمسين ألف دولار وقد ترك الضيوف من الطعام ما يكفي لإطعام العشرات، فتساءل القس ميخائيل "ومن هذا المبذر؟" فابتسم الشيخ عاصم وأجاب "علمت أنه من المتنفذين الذين قدموا إلى الضفة الغربية." ثم طفقا يحتسيان الشاي متمهّلين حين قال الشيخ عاصم "أتوقع زيارتك في القريب أنت والعائلة." فرد القس ميخائيل "الحق أنه لا غنى لنا عن التواصل، فإذا كنا ونحن أطفال لا ننقطع عن اللقاء، فكيف ننقطع عنه اليوم؟!"

. . .

obeikandl.com

8

بدت ابنة الشيخ عاصم منفعلة في هذا اليوم الذي ستتخرج فيه في الجامعة، ذهبت إلى الكوافير لتصفيف شعرها واشترت فستانا أخضر ذا لون فاتح وقالت لأبيها:

ألا تكفي قبعة التخرج السوداء بديلا من المنديل الذي لا يفارق رأسي؟

فأجاب بحزم:

ديننا يأمرنا بهذا الحجاب وقد طلبت منك ارتداءه لأن هذا واجبي ولا يكفي أن تكوني مقتنعة بأن قبعة التخريج تغني عن الحجاب بل ينبغي أن نحتكم إلى الشرع.

وها هي تتقدم للعمل في أحد البنوك ففازت بوظيفة ذات صلة بمادة المحاسبة التي درستها في الجامعة.

مضى على عملها سنتان قبل أن تلحظ سلوكا خاصا نحوها من قبل أحد الزملاء... وقد تقدم إليها في عيد ميلادها بتحية خاصة

obeikandl.com

وبساعة فضية تنم على ذوق حسن فاعتذرت عن عدم قبولها إذ لا علاقة شرعية تربطها به وذكرت له أنها سترحب بها شاكرة لو كانا مخطوبين مثلا. فباح لها برغبته في الاقتران بها فأسعدها ذلك واستدركت أن الرأي لأهلها أولا ثم لها ثانيا. وحين أخبرت أبويها أمهلها أبوها كي يسأل عن أسرته وعن سلوكه، وما هي إلا أن تمت الخطبة ثم لم يمض شهران حتى كانت زوجة له، وأخبرته أنها ترغب في خلع الحجاب لأن الحجاب في رأيها معنوي وهو ما تتمسك به، فلم يجد غضاضة في موقفها ما دام يثق في خلقها العالي إلا أن الشيخ عاصم سرعان ما اعترض بغضب على حين وقفت أمها على الحياد فكان ردها أنها الآن في عصمة زوج وأنهما ليسا صغيرين كي يخضعا لآراء الكبار.

فبدا الشيخ عاصم مقتنعا بحجتها فهي الآن مسؤولة عن نفسها وفي عصمة زوج يحبها فلا داعي للتدخل في حياتهما.

...

قال الشيخ عاصم في نفسه وهو مستلق في المستشفى "هل كان بإمكاني أن أرى الشاب ينزف دما دون أن أتدخل لحمله؟" إذ رأى عددا غير قليل من الناس رجالا وشبانا متجمعين حول هذا الشاب دون أن يتمكنوا من حمله إلى المستشفى لأن جنود الاحتلال منعوهم مهددين إياهم بإطلاق النار إذا اقتربوا منه فقد أرادوا له أن ينزف حتى الموت، فما كان منه حين رأى هذا المشهد المرعب إلا أن أسرع إليه وحمله فأطلقوا عليه رصاصتين إحداهما في الكتف والأخرى في رجله اليمنى إلا أنه استمر يسير قليلا وهو يعرج حتى اختلط بالناس فحملوا الشاب وأسرعوا به إلى المستشفى مع الشيخ عاصم.

وحين سمعت زوجته بالخبر ذُعِرت واتصلت بابنتها وزوجها

فاصطحباها إلى المستشفى وسألته في لهفة:

ماذ جرى؟ وهل أنت بخير؟

فأجاب باسما بعد أن اعتدل في جلسته:

لولا لطف الله لكنت الآن في ثلاجة الموتى فاحمدي الله.

الحمدلله، ولكن أكان ينبغي أن تغادر البيت ولم يمض على عودتك من المحكمة سوى ساعتين.

كل شيء بإذنه تعالى وها أنا حي أرزق فلا داعي للجزع، وأشكر الله أيضا أنني أنقذت الشاب وإلا ظل ينزف حتى يفارق الحياة.

وأقبل رؤوف على أخيه يعانقه بحرارة وقال وهو يلهث:

الحمدلله على أننا لم نخسرك وأظن أنك لو قتلت لقال الناس إنك قد تهورت بإنقاذ الشاب لأن هؤلاء الجنود لا تأخذهم رحمة بأحد، فردّ الشيخ عاصم ببطء:

على أنني لو لم أنقذ الشاب للازمني الندم مدى الحياة ففي تلك اللحظة لم يداخلني الخوف من الموت.

وما هي إلا أن أقبلت أم الشاب الجريح فأكبت على يد الشيخ عاصم تريد أن تقبلها فسحبها وهو يقول:

أشكري الله يا أختي أولا فهو الذي وجّهني إلى السير في شارع المتنزّه على غير عادتي.

فقالت والدموع تترقرق من عينيها:

إن ما صنعته يا شيخ لا بد أن تجازى به من الله وسيظل ديْنا في أعناقنا.

ثم جاء ابنا الشيخ عاصم فزعين لأنهما سمعا الناس يقولون أن الشيخ عاصم قد قتل، فارتميا على صدره والسعادة تغمر قلبيهما. وقال سامر:

هذا أسعد يوم في حياتي إذ رأيتك على قيد الحياة وقال الأصغر:

ولكن ماذا حدث لك؟

وأكمل ضاحكا:

هل رجمت الجنود بالحجارة؟

فابتسم الشيخ عاصم وأجاب:

عضلاتي ما زالت قوية مثلكم تماما ولكني لم أقذفهم بالحجارة، بل حملت شابا جريحا فأطلقوا عليّ النار.

فعادا إلى تقبيل أبيهما من جديد وهما يحمدان الله على سلامته وأقبل أنسباؤه مهرولين وأكبوا عليه يقبلون وجنتيه فقال أحدهما:

حمدالله يا شيخ حمدا لله. حين سمعنا بإطلاق النار عليك ظننا أنك استشهدت لأن الخبر كان غير واضح وظننا أن من أخبرنا أراد أن لا يفاجئنا بالمصيبة، فابتسم الشيخ عاصم وقال بهدوء:

الحمدلله أنها جاءت على هذا القدر.

وهز الرجل رأسه وهو يقول بألم:

إلى متى سيستمر هذا الظلم؟ فمنذ مئة سنة ونحن نعاني احتلالا وآلالاما.

وقال الشيخ عاصم:

لا أزال أذكر تجربة أبيك خلال الحرب العالمية الأولى كما أخبرتني.

تقصد سنة الجراد والكوليرا بل قد قاسى الناس ما هو أدهى من ذلك إذ أجبروا أن يشقوا الطريق بين قرية الخضر وغزة بسواعدهم وأجبروا الشبان على الالتحاق بالجيش بعد تدريب قصير لم يتجاوز أسبوعا ولم يسلم من هذا التجنيد حتى المختلّون عقليا. وقد رأت جدتي بأم عينها ضابطا تركيا يضرب رجلا اشترى منها بعض حبات

من البندورة حتى فارق الحياة، ثم جاء الجراد سنة 1915 وغطى الأرض حتى بدت كأنها تمشي وأصاب الناس بانتشار الكوليرا خوف شديد فكان الأتراك إذا رأوا شخصا يعاني من الإسهال ظنوه مصابا بالكوليرا فيحملونه ويدفنونه حيّا. وانبرى الشاب متابعا كلام أبيه:

وماذا تغير في حالنا اليوم؟! فما زلنا نعاني من الظلم بعد نكبة التشريد.

فاعتدل الشيخ عاصم في جلسته ثانية وقد استثار النقاش حماسته، وقال:

أظن أن الظلم سبب رئيسي في هذا الاحتلال الذي يقعد على صدورنا، فحيثما يسود الظلم ينتشر الجهل والضعف.

تركت الإصابة التي تعرض لها الشيخ عاصم أثرها في حياة الأسرة وازداد احترام زوجته له فكانت تردد أمامه:

ماذا كان سيحل بي لو مت لا سمح الله.

فيجيب ضاحكا:

البركة في أولادنا ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

كل منهم سيلزم امرأته فلا أنتظر أحدا سواك بعد الله

لا تخشي بأسا إن شاء الله.

وذات يوم جاء سامر إلى أمه يقول بخجل:

لقد عثرت على زوجة ستكون لي نعم الشريكة.

ومن هي؟

صبية تعمل مدرّسة في مدرسة ابتدائية.

ولكنك طبيب وتحتاج إلى زوجة تُعينك في مهنتك

وأنتِ هل كانت شهادتك الإعدادية مؤهلة لإعانة أبي؟

أنا ابنَة أناس ذوي جاه

وهي فتاة متعلمة ولا يهمني مستوى أهلها المالي، ومع ذلك فأسرتها ليست من الفقراء المعوزين.

وكانت حفلة الزفاف متواضعة لأن سامر كان يخطو خطواته الأولى في مهنة الطب، وحين رأت الأم حياة ابنها مع زوجته هانئة تحولت تعاستها إلى سعادة ورأتها تحرص على إسعاد ابنها، وعلّق الشيخ عاصم على ذلك:

هذه الزوجة مثالية في رأيي تدُّينا وخُلقا وهي جديرة بمحبتنا، وإدارتها لبيتها لا غبار عليها.

راح سامر يعمل في مستشفى خاص من أجل أن يكتسب خبرة في تخصصه بالأمراض النسائية. وذات يوم كان يجالس ممرضا أمام المستشفى فباح له بهم يثقل صدره قال: "تزوجت عرفيا من فتاة كانت زميلتي في المستشفى الذي عملت فيه سابقا، لإنني بصراحة لا أستطيع أن أستأجر منزلا، ومنزل أهلي مكون من ثلاث غرف لا تكاد تتسع للعائلة ولا أستطيع أيضا أن أظل عازبا بعد أن بلغت السابعة والعشرين"، فرد سامر:

تخلصت من العزوبة وحسنا فعلت ولكن أين سيعيش أطفالك إذا رغبت أن تكون أبا وهذا من حقكما أنت وزوجتك؟

والمصيبة أن أهلها لا يعلمون بزواجنا وهي تخشى أن تخبرهم بحملها أيضا!

عليك أن تتقدم إليهم بورقة الزواج كي يساعدوكما على تدبر الأمر بالنسبة إلى حملها.

وهنا استدعته ممرضة لفحص مريضة جاءت على عجل، وحين عاد إلى البيت وجلس إلى زوجته يحتسي كوبا من الشاي كعادته بعد العشاء أخبرها بقصة المرض فأبدت حزنا وعقّبت:

هؤلاء الشبان معذورون في رأيي فمن أين لهم أن يقيموا أسرة، هذا إذا عثروا على عمل؟ وماذا تفعل البنات إذا تقدمت بهن السن!... الله يهوّنها!

والأسوأ أن بعضهم ينجبون عددا من الأطفال يفوق قدرتهم على إعالتهم وقد أعجبني مثل سمعته "العيال سوس المال."

فقالت:

تحكيم العقل هو الحل، وقد تستغرب إذا قلت لك إنني أفكرّ كثيرا في الذين رضوا أن يتخذوا من المقابر مساكن لهم ولأولادهم فأين كرامتهم وأين ضمائرهم حين يذلون أولادهم؟

ومضت اسابيع لم يسمع الدكتور سامر من الممرض شيئا عن زوجته وحملها فسأله: " هل سويتما أموركما مع أهلها؟ " ، بل تعقّدت لسؤ الحظ، فما إن أخبرت زوجتي أمها بزواجها العرفي وحمْلها، حتى راحت توبخها بصوت عال فسمع أبوها صراخها وهب مذعورا من سريره دون أن يعرف السبب ثم هدّأ ثائرتها، ولما عرف القصة طردها بغلظة من بيته فجاءت إليّ باكية مضطربة فاصطحبتها إلى منزل أهلي وحصل أبي لها على شهادة زواج شرعية لمصلحة الجنين. "

إذن قد بدأتما تسيران في الطريق الصحيح

وسنعمل على استئجار بيت صغير نتهيأ فيه لاستقبال المولود وأنا موقن بتدبير الله.

...

opeikangie.com

9

اعتاد الدكتور سامر أن يجلس في متنزّه بلدية رام الله مع زوجته وابنه إذ كان المتنفس الوحيد للشبان بعد أن أغلق متنزّه "عوده". وقالت زوجته وهي تحتسي زجاجة "السفن أب":

اعتاد عاصم أن يخرج من البيت بين الفينة والأخرى فإذا أغفلنا اصطحابه معنا شعر بضيق شديد ولم يجد رغبة في الأكل أو شرب الحليب، انظر إليه كيف يمتصّ زجاجة الحليب بنهم بفضل الهواء النقي؟

فقال باسما:

ونحن مثله أيضا، دعيني أحمله قليلا إنه يبدو مشتاقا إليّ...

أرجو أن يكون وقته خيرا من أيامنا

يبدو أنك متفائلة! أما أنلا فلا أظن أن أيامه ستختلف عن وقتنا هذا لأن فصائلنا ليست على قلب رجل واحد ولا تنسي أنها تتباهى ببطولات بعضها ضئيل التأثير وبعضها الآخر ليس من صنعها، وقد سمعت صديقا يقول مازحا "لو وقعت صاعقة على تل أبيب لتبارت

obeikandi.com

الفصائل تعلن أنها هي التي أسقطتها" !

ومرّ به جاره الذي كان يعمل في سلك التعليم ثم انتقل إلى العمل في حقل البناء داخل الخط الإسرائيلي الأخضر، كان يسير في المتنزّه مع صديق فوقف عند طاولته وحيّاه، على حين وقف صديقه بعيدا ثم بادره بالسؤال هل في الإمكان أن يتحدث إليه غدا حول ابنه الذي أنهى الصف التوجيهي. فرحب به قائلا:

تستطيع أن تستفسر عن أي موضوع.

وفي الغد جرى بينهما حديث عن مهنة الطب وفروعها مما جعل الرجل يلم بها كي يختار الفرع الذي يناسب ابنه ويوفر له حياة كريمة في المستقبل إلا أن الطبيب أبدى دهشته لأن جاره ترك مهنة التعليم بعدما قضى فيها مدة غير ضئيلة وخسر تقاعده كي يلتحق بحقل البناء في إسرائيل، وخاطبه مؤنبا:

كيف تتخلى عن عمل منتظم وتعمل في مهنة لا تناسب تخصصك؟، فأجاب في حزن:

أغراني الدخل الكبير في البداية إذا قيس براتب المعلم، أما الآن فقد ضيقت إسرائيل مجال العمل عندها وخفض المقاولون الإسرائيليون أجور العمال العرب الذين يأتون من الضفة الغربية، وها أنا أبحث عن عمل.

لماذا لا تعود إلى التعليم؟

لو لم تصدر الوزارة القانون الذي يقتضي أن يحمل طالب الوظيفة التعليمية شهادة في التربية لما ترددت في تقديم طلب التوظيف، وقد طلبت نقابة العمال من سلطة الإدارة المدنية الإسرائيلية أن يسمحوا لنا بالعمل في إسرائيل.

فعقّب الدكتور سامر ساخرا:

سبحان مغيّر الأحوار، كان قادة الفصائل يخوّنون من يعمل في

مصانع إسرائيل وأرسلوا من يحرق باصات (إيجيد) التي كانت تتردد على القرى لنقل العمال العرب، واليوم يطالب العمال إسرائيل بأن تيسّر لهم العمل فيها.

وأردف الرجل:

هناك مفارقات كثيرة في حياتنا ومنها هذه المفارقة ولكنّ أملي بالله كبير.

ثم نهض مودّعا وشكره على نُصحه.

...

كان الشيخ عاصم دائم الشوق إلى حفيده فكان يزور منزل ابنه مرارا كل أسبوع بصحبة زوجته وأحيانا بصحبة الأسرة. وقد راجت في رام الله أقوال كثيرة حول ارتفاع أثمان الأراضي بسبب الوافدين من الخليج وازدياد السكان في أعقاب الصراع الذي دار بين العراق والكويت فتنبه الشيخ عاصم وابناه على هذا الجانب وقال وهو يسند رأس حفيده إلى صدره:

ينبغي ألا نفوّت الفرصة قبل أن يزداد ارتفاع الأسعار ويبالغ أصحاب الأراضي في اقتضاء أثمانها.

فداخلت الحماسة ابنيه وطفقا يبحثان عن قطعة أرض مع بعض الوسطاء. ورتّب أحدهم لقاء مع صاحب إحدى الأراضي إلا أنه أظهر تعاليا بقوله بعدما ساوماه:

الوافدون من الخليج فقط يدفعون ثمن الأرض دون مساومة، ولو كنا نعتمد على سكان رام الله وحدهم لظلت الأسعار خامدة ولكُنا اليوم نركب الدواب كما في الماضي.

وهنا قال الوسيط بصوت خافت:

لا أكتمكما أنه كلما ازداد عدد الوافدين إلى رام الله، ارتفعت أسعار الأراضي.

وفي اليوم التالي التقى به الشيخ عاصم فطلب منه أن لا يمل البحث عن قطعة أرض مناسبة.

...

سر القس ميخائيل حين رأى ابنه حمدي يحمل شهادة البكالوريوس في الإدارة فاصطحبه إلى بعض الشركات مزهوّا كي يجد فيها عملا إلا أن الجواب كان الاعتذار لأن الأشغال ضيقة كما قيل له ثم وافق مدير شركة صغيرة أن يوظفه بأجر قد لا يرضى به صبي في مطعم فعمل عنده بضعة أشهر ثم استنكف، وحين عاد إلى البيت كان الصمت يلفّه كأنه قادم من جنازة قريب فقالت أمه غاضبة:

أي مجتمع هذا؟ حتى الشهادة الجامعية لم تعد تحمي صاحبها!

وعقب القس ميخائيل:

ليته لم يفلح في المدرسة إذن لتعلم مهنة معينة، فها هي الصحف اليومية تنشر الإعلانات عن الحاجة إلى مهنيين في مختلف المجالات.

ثم قال بحرارة:

ما رأيك في أن تتعلم مهنة وتضع شهادة الكالوريوس على ظهر الخزانة ولا تخجل حين يعلوها الغبار فلن يراها أحد!

بعد أيام كان يسير قرب صيدلية وليد ابن الشيخ عاصم فدخل لتحيته، فأصر وليد أن يجلس قرب طاولته وقدم كأسا من الشاي وتأمل حمدي الصيدلية ثم سأل صديقه:

صيدليتك ما شاء الله ملأى على صغرها بالأدوية ومواد التجميل فهل عملت خارج الضفة الغربية؟

لا لم أعمل في أي مكان، وهل يستطيع خريج أن يفتح صيدلية دون معونة من الأهل؟ بل لا أستطيع أن أتزوج اعتمادا على دخل الصيدلية!

يقولون إن الله لا ينسى أحدا وأرجو أن يصدق هذا القول علينا،

فإن الوظائف ضئيلة في هذه الأيام فضلا عن تزاحم الخريجين عليها بعد فتح الجامعات، فقد أقيمت في كل مدينة جامعة أو جامعتان وجميعها تقدم نفس التخصصات، ثم أكمل وهو يبتسم:

لقد أحسن أبي وأبوك بالانخراط في سلك الدين.

ومر بهما صديق لوليد فدعاه لشرب كأس من الشاي فدخل وهو يقول مبتسما:

لا بأس من احتساء الشاي ممزوجا برائحة الأدوية، ثم بادر حمدي بالسؤال:

أما زلت تعمل في شركة المنسوجات؟

فأجاب باقتضاب:

لا... لأنني كنت أخجل أن أخبر أحدا بالأجر الذي أحصل عليه، وهنا قال الشاب:

لي شقيق مضى على تخرجه في قسم الإعلام سنة ونصف وإذا جمعنا الأيام التي عمل فيها بأجر لم تزد على ثلاثة أشهر.

وكان وليد خلال النقاش يبحث في إحدى الخزانات عن الدواء المسجل في الوصفة الطبية لأحد المرضى وهو يتابع الحديث بينهما، فاقترب منهما بعد ما ذهب المريض وقال متسائلا:

ما رأيكم أنني حضرت حفلة عرس كلفت صاحبها عشرين ألف دينار! وقد رأيت بعيني سيارة شحن صغيرة ملأى بالفواكه تأتي إلى ساحة العرس ثم تلتها سيارة حلويات!

فقال الرجل:

نتحدث كثيرا عن الفساد الاقتصادي ولا نفعل شيئا للقضاء عليه، الأفضل أن نصمت فماذا ينفع الكلام في هذا الشأن ولا حسيب ولا رقيب.

...

10

أنهت سائدة ابنة رؤوف برنامج السكرتاريا فاتصل الشيخ عاصم بصديق يدير مؤسسة للتأمين فاعتذر إليه لأن لديه سكرتيرة هي ابنة عمه، إلا أن صديقتها اصطحبتها إلى مصنع للتبغ قالت أن مديره بحاجة إلى سكرتيرة كما أخبرها فأبدى رغبتة في تشغيلها ولكن بعد انقضاء ثلاثة أيام، وكانت سعيدة به ولا سيما أن مدير الشركة ودود لا يثقل عليها بالأعباء.

وفوجئت به بعد شهرين يقدم إليها زجاجة عطر باهظة الثمن فاعتذرت عن عدم أخذها وذهبت إلى زميلها وهو محاسب المصنع وسألته:

ما رأيك يا رامز في هدية يقدمها مسؤول لإحدى الموظفات؟ هل تقبلها أم ترفضها؟

فأجاب:

إذا كنت تتحدثين عن نفسك فأنت صاحبة الشأن وقال في نفسه

obeikandl.com

"إن شجعتها على رفضها ربما أخبرت "ابو منصور" ويكون عقابي الطرد من العمل وأين أجد عملا آخر في هذه الأيام! فإن معظم خريجي الجامعات عاطلون عن العمل. فدهشت لكلامه وأجابت:

إذن لماذا كنت تكتب في الصحف عن ضرورة القيام بعملية تطهير واسعة في مؤسسات المجتمع أم أن ما تكتبه حبر على ورق فقط؟

ألم تعلمي أنني توقّفت عن الكتابة منذ أن جئت إلى هذا المصنع فقد طردت من وظيفتين بسبب كتاباتي ولست مستعدا أن أطرد هذه المرة فأنا أتهيأ للزواج وبحاجة إلى مال لإتمامه ثم أقول لك بصراحة: لم تغير كتاباتي شيئا من واقع الحال بل جرّت عليّ مشكلات لا تحصى مع الناس والمسوؤلين.

وابتسم بخجل وهو يردف:

ألم تسمعي بالمثل الذي يقول السكوت من ذهب؟

وحين أصرت على رفض الهدية استغنى أبو منصور عن عملها بحجة أن عائد المصنع ضئيل لا يشجع على توظيف سكرتيرة.

فقالت في نفسها:

إذن كنت محقة حين رفضت هديته لأنه أرادها جسرا لمتعته.

فاستقبلتها أمها مستغربة عودتها المبكرة من العمل فألقت عليها التحية وأتبعتها بالقول "أنهى أبو منصور عملي."

لماذا؟ عهدي به أنه كان معجبا بعملك خلال الشهرين الماضيين.

فضحكت ضحكة باهتة وأجابت "لأنني رفضت زجاجة عطر أهداني إياها".

فانفعلت الأم وردت بغضب:

هذا اللئيم ظنناه رجلا شهما ووثقنا منه.

من اليوم اعلمي أن الرجال ذوي الشهامة قليلون ولا سيما إذا

كانوا من ذوي الغنى!

وفي المساء شرعت تخط العبارة التي سمعتها من محاسب المصنع "السكوت من ذهب" وجعلتها بخط كوفي جميل وبحبر أسود وقلم ثلاثي الأبعاد. فسألها أبوها معجبا بالخط:

ما الذي دفعك إلى كتابة هذه العبارة؟

فأجابت وهي تتأملها كما كانت تفعل كلما ابتاعت بلوزة جديدة:

سأهديها إلى محاسب المصنع لأنه يبدو مكبّلا بالوظيفة ويخشى أن يبدي الرأي في شيء لئلا يطرد.

الموظف يا بنتي حذر بحكم وظيفته فهل رأيت موظفين ينخرطون في مظاهرات ضد الاحتلال أو ضد مسؤولين مثلا؟ لأنهم لو فعلوا لطردوا في اليوم التالي. الموظف مرتبط بالوظيفة قبل ارتباطه بأي انتماء وكثير من الموظفين اليوم كانوا يتقدمون المتظاهرين ضد الاحتلال يوم كانوا طلابا...

وتدخلت الأم وهي تحمل طبقا من الترمس قائلة:

لا تحزني يا بنتي فالله لا ينسى أحدا، وأنا على يقين أنك ستجدين عملا بدلا من المصنع.

وعقب الأب:

حقا، عشنا حياة فقر ولكن رحمة الله أعانتنا على اجتيازها... كنا ونحن صغار نذهب إلى بعض الحقول المحيطة برام الله فنقطف عشبة تدعى "اللُّفيته" ونأتي بها إلى البيت فتصنع منها أمي طعاما شهيا وحين ننتهي من الطعام ندسّ أنا وعمكم في جيب البنطال حبات من القطين الأسود ونركض نحو الشارع فنأكله بلذة ونحن نلعب فتساءلت الابنة الصغرى:

يعني أنكم لم تعرفوا الشوكولاته؟

يبدو أنها كانت باهظة الثمن، فلم نرها في بيتنا قط ولم يكن حال الأولاد الآخرين أفضل من حالنا فلم نشاهد أحدا من الأولاد يأكل الشوكولاتة في الشارع وكانت أمي تسمي القطين وهي تمازحنا "هذه شوكولاته عربية."

...

التقى القس ميخائيل برؤوف في سوق الخضار فتصافحا بحرارة إذ قلّما التقيا بعد مغادرة رؤوف لحارة "الشراقة" وانتقاله إلى حارة "الشّقرا". كان القس يحمل بعض الحاجيات فقال لرؤوف:

أصبحت هذه (الحِسْبة) ملتقى الأصدقاء فلا أحد يستغني عن الخضار والفواكه.

وردّ رؤوف:

وأصبحت هذه (الحِسْبة) وظيفة أخرى لنا، على أن سائدة كانت تفي حاجتنا وهي عائدة من عملها في المصنع.

حقا... كيف حال الأسرة؟

بخير والحمدلله

وماذا تفعل ابنتك الآن؟

تمارس موهبة الخط في البيت لملء الفراغ بعد تركها المصنع.

فسارع القس يقول:

عندي لها وظيفة إن وافقتم.

وما هي؟ فإن الفراغ مؤلم ولا سيما للشباب

ثمة عمل في مكتبة للأطفال تابعة للكنيسة

هذا أمر جيد ومصادفة طيبة.

فابتسم القس وهو يقول:

رب صدفة خير من ميعاد وغدا تستطيع أن تبدأ العمل

...

كانت حماسة سائدة للعمل ظاهرة ورغم أن المكتبة صغيرة إذ بها ثمانية رفوف، فإن الكتب التي تضمنتها منوعة وتجذب الأطفال بعد دوام المدرسة وكان يعمل معها رجل متقدم في السن وسرعان ما تآلفا وإذا أحسّ تعبا طلبت منه أن يجلس خلف الطاولة على أن تقوم هي بمهمة تسلّم الكتب وتسليمها للأطفال.

وفوجئت بعد أسبوعين بمجيء القس مع المشرف العام على المكتبات وهو اسباني يدعى خوليو، فشاهداها منغمسة في العمل وقال المشرف للقس:

الحق أنك أصبت في اختيارك لهذه الفتاة

إنها ابنة صديق قديم وقد أبدت إخلاصا في العمل، ولهذا سأطلب لها زيادة في الراتب في مطلع الشهر القادم

وكان عمل المشرف في المكتبة يستمر ثلاثة أيام ثم ينتقل إلى مكتبة أخرى، فوقعت في نفسه ورأى فيها زوجة صالحة فقال لها في اليوم التالي:

لا أكتمك أنني معجب بأخلاق البنات في بلادكم، فأجابت ضاحكة:

وهل تعرف أخلاقنا معرفة دقيقة تبني عليها إعجابك

إنني بحسب خبرتي أثق بإخلاصهن للزوج

وهل بناتُ اسبانيا أقل إخلاصا؟ على أن المثل الغربي يقول لا تخلوا أية غابة من شجرة فاسدة

وحين زار المكتبة بعد شهر فاتحها برغبته في الزواج منها، فقالت له:

كأنك لا تعرف أنني لست مسيحية مثلك

اعرف ذلك لأن الدين قضية إيمانية بين الانسان وربه وما أكثر

opeikandi.com

الذين لا يؤمنون بالأديان

ولكن الدين مهم في حياتنا هنا ولا يجوز لي الزواج من رجل غير مسلم مع أنني أحترمك وليس لدي أي اعتراض عليك لو كنت مسلما. إلا أنني سأعرض الأمر على أبي وسأفعل بما ينصح به وإن كنت أشك في أنه سيوافق على زواجنا لأنه لا يستطيع أن يخالف الشرع.

بعد العشاء جلست الأسرة لتناول الشاي كعادتها، غير أن سائدة بدت صامتة بعض الوقت مما استدعى أمها أن تسألها عن السبب فانتهزت هذه الفرصة واستجمعت شجاعتها لتقول:

أبي، المشرف الاسباني على المكتبات عرض عليّ الزواج فأبديت رفضا بسبب اختلاف الدين، ثم وعدته بأن أستشيرك وأنا أعلم أن هذا الأمر مستحيل في بلادنا.

فابتسم أبوها وقال:

حسنا فعلتِ، فلا يجوز في شريعتنا زواج المسلمة من مسيحي إلا إذا اعتنق الإسلام وتستطيعين أن تخبريه بذلك فإن وافق فبها، ثم ماذا عن أخلاقه؟

لا غبار عليها فهو شخص مثالي في سلوكه وفي تعامله مع الموظفين.

ثم التفت إلى ابنه المحامي:

وما رأي الأستاذ؟

فرد ضاحكا:

رأيي أن يزوّجني أخته أوّلا فالإسبانيات جميلات، لأن دماءهن مزيج من العرق العربي والعرق الإفرنجي.

فقال الأب بهدوء:

لا تستعجل الزواج يا أستاذ، فدخلك ما زال ضئيلا والذين يوكلونك

في قضاياهم ما زالوا معدودين.

وراح يحتسي الشاي وهو يستمع إلى الأخبار.

فقالت البنت الصغرى:

أرجو أن تترك لنا الخيار بعد الأخبار كي أشاهد المسلسل اليومي.

فرد مؤنبا:

كنت أقرأ كتابا في الأسبوع وأما أنت فكم صفحة تقرأين؟

أقرأ كتب المدرسة ألا يكفي هذا؟

فقال ساخرا:

كثّر الله من أمثالك

...

جلست سائدة في المكتبة تتصفح الصحيفة اليومية بانتظار من سيأتي من روادها. وما هي إلا أن جاء المشرف فطرح عليها تحية الصباح ثم جذب كرسيا قريبا منها وبادرها بالقول:

أرجو ألا أكون قد أغضبتك أمس ولكن ما موقف أبيك؟

لا يستطيع أبي أن يتجاوز الشرع الإسلامي فأرجو المعذرة فالأمر ليس بيدنا كما ترى.

فقال بحزن:

مثيلاتك قليلات يا سائدة، ولعلّ الرب يوفقني بالزواج من فتاة مثلك

...

لم تمض أشهر حتى جاء مدرّس إلى رؤوف يخطب ابنته، فاستشارها في أمره بعدما استفسر عنه، فسألته:

هل تفحصت حياته أعني سلوكه وهل تعرفت مستوى أسرته؟

opeikanglie.com

أكيد

بعد أيام جاء هذا الشاب وكان ملتحيا بلحية خفيفة سوداء ويضع على عينية نظارة ذات إطار سميك: فجلست إليه تحادثه في غرفة الصالون وكان الباب مشرعا. وانقضت أيام على لقاءاتهما فاستطاعت أن تتعرف أفكاره، رأته ذا تدين وعلى خلق ويؤثر الأناشيد الدينية. فقالت في نفسها "قد نصل معا بعد الزواج الى اتفاق يرضينا إذ لا شيء ثابت".

وسارت الحياة بالزوجين هادئة وان افتقرت إلى حرارة العاطفة ولطالمت تمنت في سن المراهقة لو أن ما تراه من علاقات حميمة بين الأزواج في الأفلام يحدث بينها وبين زوج المستقبل، أما زوجها فكان يأتي بدفاتر الطلبة وينكبّ على تصحيحها ثم يجلس إلى زوجته يتحدثان في شؤون التدريس وهو يشكو ضعف الطلبة أكاديميا بعد الانتفاضة، وهي تشكو قلة الإقبال على القراءة في مكتبة الأطفال، وكثيرا ما أبدى اعتراضه على مسرحية مدرسة المشاغبين التي جرأت الطلبة على المدرسين، وعلى الأسعار التي لا تنفك ترتفع بعكس الرواتب. وفي السنة الثانية لزواجهما جاء طفلهما البكر أحمد حاملا اسم جده.

فمكثت في البيت بإجازة أمومة شهرا تاقت خلاله إلى العمل إذ منحتها المكتبة اتصالا وثيقا بالناس فطلبت من أمها رعاية الطفل شهرا ريثما ترسله إلى حاضنة تعتني به. إلا أن الأم أحست بعد أسبوع من مكوث الطفل لديها أن عبئا جديدا يضاف إلى أعبائها المنزلية فأبلغت ابنتها قائلة:

لماذا لا تشترك جدته أم ممدوح معي في العناية به أسبوعا أو أسبوعين.

ففكرت قليلا ثم أجابت:

سأنقل هذا الموضوع إلى ممدوح لأرى ما يقول.

وقالت له بعدما تناولا الطعام وراح يحتسي القهوة:

لأمي رأي في العناية بأحمد وهو أن تتعاون مع أمك في رعايته.

فردّ في جفاء:

أمي لديها مشاغل كثيرة وطالما رعت أبناء أخوتي وأخواتي

فصمتت ثم نهضت لإرضاع الطفل. وما إن انتهى شهر الإجازة وعادت إلى العمل حتى أحسّت كأنها طائر أفلت من القفص. وكانت قضية الحجاب مشكلة باتت تؤرق زوجها فهي تذهب وتعود من العمل حاسرة الرأس فتثير انتقاد أمه وأبيه فقال لها بعد أشهر:

ألم يحن الوقت لتتحجّبي؟

فردت بغضب:

هذا نهجي، وحين أقتنع بضرورة الحجاب سأتحجّب دون أن يطلب أحد مني ذلك، على أن عفتي هي الحجاب في مفهومي.

ولكن ليس كذلك فقط في مفهوم الدين

قل ما شئت

يعني أنك ترفضين طلبي

هو كذلك

فألقى عليها الطلاق ثلاثا وهو ينفخ غضبا فعادت إلى منزل أبيها تحمل طفلا لا يزيد عمره على سنة.

...

obeikandl.com

11

استقبلت الأسرة عودة ابنتها مع طفلها بكثير من الحزن وأبدى الأب سخطا لهذه الحال التي بلغتها ابنتها وزوجها غير أن شقيقها جاد أيّد موقفها فلطف من مشاعر الغضب التي تغلغلت في المنزل.

ومضت سنتان على طلاقها وكان ابنها قد ناهز الثالثة من عمره، فباتت تشعر أنها عبء على أسرتها إذ كانت تسمع بين الحين والآخر عبارات التأفف يُطلقها الأبوان "من أين أتانا هذا الهم؟" تقول الأم، أما الأب فيلومها لعدم ارتدائها الحجاب بعدما أضحى نمط الحياة لمعظم الأسر، كما كان يردّد،

وحين دخل مشرف المكتبات الاسباني المكتبة مع القس ميخائيل لتفقد المكتبة أحست بارتياح لم تعهده من قبل يوم كان يأتي، فحياها القس وصافحها المشرف واستوضح عن حالها وحال زوجها فأطرقت في صمت فأسرع القس يقول له "هي الآن مع الأسف مطلقة" فأبدى شعورا بالحزن ثم جال في المكتبة مع القس يتفقد الكتب على الرفوف

obeikandl.com

وطلب منها أت تجلد الكتب التي توشك على الاهتراء وأن تغني المكتبة بمزيد من الكتب التي تحضّ على مكارم الأخلاق ولا سيما القصص الخاصة بالمراهقين لأن المكتبة ينبغي أن تلبي حاجة مختلف الأعمار.

وجلس قرب الطاولة إلى جانبها وقريبا من الموظف أما القس فاستأذن بالخروج لانشغاله في بعض الأمور.

وقال المشرف وهو يحتسي القهوة "أنا لا أشرب القهوة التركية ولكن لا بأس في شربها ما دمتِ أنتِ التي صنعتِها". وأرفق كلامه بضحكة سريعة.

فأجابت ضاحكة:

في المرة القادمة سنتعامل مع قهوتكم حين تأتي

بعد ثلاثة أشهرّ وربما أحضر قهوتي معي أيضا!

وحين عادت من العمل أقبلت على ابنها تستبدل بثيابه المتسخة ثيابا أخرى وأطعمته وأجلسته في حضنها بحرارة كي تساعده على النوم، غير أن فكرها انصرف إلى المشرف الاسباني وبدت صورته ذات ملامح واضحة، عيناه الزرقاوان اللتان تشعان ببريق جذاب وقامته التي تميل إلى الطول ورأت نفسها بعين الخيال تعيش معه في منزل واحد؛ إن لطفه الذي يظهر واضحا دون تكلف كفيل بأن يجعلها تسعد في العيش معه، ولكن الفارق الديني عقبة يصعب تخطيها في هذه البلاد وتساءلت على استحياء "ماذا لو ذهبت إلى اسبانيا وتزوجنا زواجا مدنيا ثم نعيش هناك فهو لا يطالبني أن أبدل ديني فلماذا أفرض عليه ذلك وهو غير مقتنع ولعله يقتنع فيما بعد فتكون فرحتي مضاعفة بزواجي منه وبكونه مسلما مثلي فلا يسبب لأهلي حرجا أمام الناس". وانتقلت بفكرها إلى طفلها: "سيرعاه أهلي وقد أصحبه حين يكبر وربما طالب به أبوه كما يقتضي الشرع فلن يكون

عقبة على أية حال".

...

انقضت بضعة أشهر على فتح جاد لمكتب المحاماة دون أن يكون ثمة تحسن في الإقبال عليه فقال في نفسه لعل مكتبي بعيد عن المنارة وفاتح أباه في ذلك فنصحه أن يبحث عن مكتب قريب منها لأنها مركز المدينة وفيها يلتقي سكان القرى القادمون إلى رام الله كل صباح.

فانتقل إلى مكتب مؤلف من غرفة صغيرة ذات واجهة زجاجية عريضة تطل على الشارع فتوفر الضوء الساطع إلى ما بعد العصر بقليل وجعل لافتة المكتب ذات مساحة كبيرة تشدّ الأنظار وما ان افتتح المكتب حتى جاءه شخصان خلال أسبوع وكلفه أحدهما بمهمة الإشراف على بيع قطعة أرض لأن ابنه يزمع السفر إلى الخارج للعمل في البرازيل وأما الآخر فهو يريد أن يخلي المستأجر منزله لأنه لم يدفع أجرة البيت منذ ستة أشهر بحجة أن صاحب البيت يرفض إصلاح مدخل البيت.

واعتاد أن يجلس في عيادة طبيب الأسنان إذا وجد العيادة خالية من المرضى فيشرب القهوة التي تصنعها المرضة فزارته مع صديقتها يوما وشربتا معه الشاي. ودار بينهم حديث سريع حول العلاقات الاجتماعية فأبدتا امتعاضا للتباعد الذي بدا على أفراد المجتمع حتى بين الأقرباء بل ان الزوجين باتا في أحيان كثيرة لا يطيقان الحديث إلا في أضيق الحدود.

وأردفت صديقة المرضة قائلة "كنت قبل سنوات أشاهد أفلاما رومانسية جميلة فأسعد بمشاهدتها وأتمنى أن أعيش حياة شبيهة بها أما الآن فلا أكاد أرى من يتعامل مع زوجته أو من تتعامل مع زوجها بمثل هذه الرومانسية كما أن علاقتهما بالأولاد شبه مقطوعة

أيضا والحديث الدائر الآن في كل أسرة عن المال بل إن الأزواج باتوا يستعيضون عن الحب بالصداقة."

وقال المحامي:

ألا تعرفان أننا أصبحنا استهلاكيين في كل شيء إلا في العواطف؟

وقال في نفسه "هاتان تشعران مثلي بالتعاسة فلأطلب منهما الذهاب إلى القدس يوم الجمعة برفقتي." وبدت دهشته عميقة حين وافقتا سريعا وقالت المرضة:

لو لم تطلب منّا مرافقتك لطلبنا نحن منك ذلك

فتساءل ضاحكا:

ألا تخشيان مرافقتي؟

فردت بثقة:

أنت صديق محترم ولو لم تكن كذلك لما وافقنا، لأنه ينقصنا الترويح عن النفس فنحن نعيش في هذه المدينة في سجن كبير مع أن رام الله أكثر انفتاحا من سائر المدن الأخرى.

يبدو أنكما تعانيان من الفراغ ولا أعتقد أن أحدا سيملأه سوى الزوج، فضحكتا وأجابت صديقة المرضة:

وأين هو في هذه الظروف الاقتصادية الصعبة؟

...

عند باب العمود جلسوا في حديقة عامة لم يكن بها سوى رجل وابنه فقال جاد:

يبدو أن القدس توشك أن تخلو من السكان العرب بعدما ضيقوا علينا وها هم يحيطوننا بالأسلاك الشائكة كما يفعلون بحظائر الحيوانات.

ومر بهما طفل يبيع العلكة فاشترى علبة صغيرة وتناول كل منهم حبة وأبقى العلبة في جيبه. ثم جاء طفل آخر يوزع نشرات بحجم الكف تنطوي على أدعية للدخول إلى الجنة.

فقالت الممرضة للطفل:

الأدعية وحدها لا تكفي يا شاطر، ومع ذلك أعطيك هذا الشيكل فإن سعادتك به تكفيني.

وقالت صديقة الممرضة:

يحيّرني أمر جار لنا عجوز لم يطرق بابه أحد منذ مدة طويلة، إلا أن جارا اشتم رائحة عفنة تصدر من منزله فأبلغ الشرطة وحين فتحوا الباب وجدوه ميتا واجتمع الجيران يتساءلون كيف يترك وحده فلا يقيم مع ابنه المتزوج وكيف لا يزوره ابنه باستمرار ليستفسر عن حاله ولينعش نفسيته.

وعقبت الممرضة:

يبدو أن هذه هي الحال التي وصلنا إليها فكل منا معني بنفسه فقط

ثم مرّوا بدكان كتب عليها "كوفي شوب" فدخل ثلاثتهم إليها... كان شبه فارغ إلا من سائح وسائحة، كانا في الخمسين من العمر فأعجبت الممرضة بنظافة هذا المقهى وقالت هامسة:

يبدو أن نظافته جذبت هذين السائحين

وطلبوا ثلاثة فناجين من القهوة السريعة وراحوا يحتسونها وعيونهم على الشارع يراقبون المارة وسرعان ما التقطت نظراتهم امرأة تغطي رأسها بمنديل أسود وتبصق على الأرض وهي تسير بهدوء فتبادل السائحان النظرات المبتسمة وكأنهما يستهجنان فعلتها. فأحس جاد بخجل داخلي وقال للفتاتين:

مثل هذا الفعل يفضح تخلفنا

وقالت صديقة الممرضة وقد بدا صنيع المرأة أمرا عاديا بالنسبة إليها:

القدس تريح أعصابي، أما الآن فإنها تؤرقها فأين ذهب سكان القدس؟ إنني أراها مثل قرية مهجورة

فبادلها الاثنان نظرات تعسة والتقت عيونهم عند سور القدس الأثري على بعد ثلاث مئة متر تقريبا ولفت نظرهم جنديان اسرائيليان فوقه يحصيان على المارة حركاتهم ويمسكان برشاشين ووقف قريبا من السور بائع كعك مُسمسم غير آبه بوجودهما.

ثم اقترح جاد أن يسيروا في طريق خان الزيت داخل القدس القديمة قبل أن يعودوا إلى رام الله فحبذتا الفكرة إلا أن الممرضة أظهرت تحفظا خوفا من التأخر لئلا تقلق أمها. كان السوق ذا شارع ضيق مما يجعل المارة مضطرين إلى الالتصاق بعضهم ببعض وذلك خلال ساعات الظهيرة أما عند العصر فيختفي المارة إلا قليل منهم، ولفت نظر الصديقة دكاكين القطع التذكارية بأشكالها المختلفة ودكاكين الحلي الفضية والذهبية وكانت شبه خالية إلا من بعض السياح، وكان أصحاب المطاعم يجلسون أمامها وعيونهم تترقّب. وقادهم السير إلى نهاية الشارع ثم عادوا أدراجهم إلى رام الله.

وقال جاد وهو يودّعهم "كانت رحلة جميلة لولا الحاجز الإسرائيلي الذي أجرى معنا التحقيق السخيف."

فأجابت الممرضة:

لا بأس لأن الاحتلال يريدنا أن نمتنع عن زيارة القدس إلا أننا غيرنا (الجو) على الأقل ولولاك لبقينا في البيت نشاهد التلفزيون.

وما إن سارتا مبتعدتين حتى مرّ به زميل يعمل في مكتب مجاور

ودار بينهما حديث حول القضايا التي يعالجانها فأبدى زميله ضيقه بضآلتها فقال جاد:

وهذا ما أعاني منه أيضا فإن الناس أضحوا لا يثقون بالمحاكم لأنها تفتقر إلى التنفيذ

ورد صديقه:

ولهذا أفكر في تأسيس مكتب للتأمين

وطفق الاثنان يجولان في شارع الإرسال حتى مالت الشمس إلى الغروب فانصرف كل منهما إلى شأنه وعاد جاد إلى المنزل فجلس قليلا على الشرفة ثم دعته أمه إلى تناول العشاء مع الأسرة وكان الجوع قد نهك معدته فأكب على الجبنة والبطيخ في نهم.

وقال أبوه ضاحكا:

أراك تأكل بسرعة كأنك لم تأكل منذ أسبوع.

فردّ وهو يلتقم قطعة الجبن:

الجبن والبطيخ خير طعام ثم إنني مشيت طويلا

وعادت سائدة إلى مشاهدة التلفزيون مع شقيقتها لأنها تتابع مسلسلا أجنبيا يستأثر باهتمامها، وحين سمعت بطل المسلسل يقول لصديقته " "إذا لم أعمل فلن أخطئ وخطأي هو الذي سيقود إلى النضج وكلما نضج الانسان قلّت أخطاوه. "

وقالت في نفسها: "يجب ألا أجترّ أخطاء الماضي وأن لا أندم عليه لأن المستقبل ما زال أمامي واسعا فأنا ما زلت صغيرة السن رغم أنني أصبحت أمّا وكم أرغب في أن أعيش حياتي مع هذا الشاب الإسباني، هذا الرجل يأسرني لطفه حين يتحدث إليّ فضلا عن أنه يعاملني باحترام شديد كما يفعل مع الموظف المشرف على المكتبة، وكنت أعتقد في البداية أنه يتكلف غير أن تصرفاته هي هي لم تتبدّل

منذ عرفته فهذه طبيعته مع الجميع، هؤلاء الأجانب ما الذي يجعلهم لطفاء ثم نقول عنهم أن الأسرة في أوروبا مفككة فلو كانت حالهم كذلك، فمن علم أبناءهم هذا السلوك الحسن! كما أن مفهوم الشرف عندهم مختلف إذا يعلق الناس هنا شرف البنت بجزء من جسدها. أما هم فيعلقون شرفها بإخلاصها لمن تحب فما زالت نصيحة أمي الرهيبة تتردّد في أذني: حافظي على جسدك لزوجك وفي ليلة الزفاف كان همي الوحيد أن يعلن زوجي لأهلي وأهله أنني فتاة شريفة ولم أنس أن أحتفظ بالمنديل الذي أعطتني إياه أمي وهكذا انتهى الكابوس وتنفست الصعداء وما ان قدمت أمي وأمه صباحا حتى سارعت بعرض المنديل فاطمأنتا وأطلقت أمي زغرودة نمّت على شدة سعادتها إلا أنني اعترضت على صنيعها وقلت لها في غضب:

من يسمعك تزغردين يحسب أنك كنت تشكّين في سلوكي

...

وكان خوليو ما يزال في رام الله منتظرا أن ينجز بعض الأعمال ثم يغادر إلى الأردن لتفقد المكتبة الأخرى التابعة للكنيسة، ورأيت أن أغتنم الفرصة للتعرف إلى أفكاره بالنسبة إلى عرضه السابق إذ لعله تزوج بعدما يئس من تجاوبي مع رغبته في الاقتران بي فسألته:

لعلك حافظت على عزوبيتك

الحق أن التفكير في الزواج قد يأتي فجأة حين يكون الظرف مواتيا ولا أظن أنه الآن مؤات

أما أنا فقد واتاني الحظ ثم صرفته عندما جرى طلاقي

يعني أنك يئست من الارتباط برجل

بل يئست من نوع معين منهم أولئك الذي يحبون السيطرة على المرأة باسم الدين

في اسبانيا القانون هو الحكم في العلاقة بين الناس فهم متساوون في الحقوق والواجبات وكذلك الزوجان فالحياة الزوجية شركة يدخلها الزوجان راغبين ويفسخانها بإرادتهما الحرة أيضا

ورأت نفسها حين أغفت تسير في شارع مدريد إلى جانب خوليو وتميل برأسها على صدره ثم نظرت خلفها فرأت زوجها السابق ينظر إليها بعين واحدة كالوجْه الذي في لوحة بيكاسو التي شاهدتها في المتحف ففزعت وعادت تلتفت إلى الأمام والتصقت بخوليو فأحاطها بذراعيه اللتين نبت عليهما شعر أشقر كشعره في الواقع فأحست بدفء وكأنها تلتحف ملاءة صوفية ثم راحت تتأمل الأشجار المحيطة بالشارع والعمارات الأثرية الشاهقة.

وتعمدت في اليوم التالي أن تفاتحه برغبتها في زيارة مدريد وحجتها أنها رأتها في المنام إلا أنها أخفت أنها كانت تسير في شوارعها الفسيحة وهي تستند برأسها إلى صدره، فأجاب:

إذا كانت هذه رغبتك فأنا على استعداد لاصطحابك شرط أن يوافق أهلك لأنكم في هذه البلاد محكومون بإرادة الأهل.

فقالت دون أن تفقد حماستها:

أنا امرأة ناضجة ولي رأيي الذي يوجهني إلا أن من الأفضل أن أستشير أبويّ

وعند انتهاء دوامها في المكتبة اتجهت إلى منزلها وفي رأسها تدور أفكار شتى حول موقف والدها "ترى هل يوافق على سفري؟ وهل أخبره برغبتي في الزواج من خوليو شرط أن يبادئني به إذ ليس من الحكمة أن أفاتحه أنا فإن لم يفعل، عدت إلى رام الله وكأن شيئا لم يكن."

وقال أبوها بعد أن نحّى كتابا كان بين يديه:

لا مانع لدي من أن تري بلادا أخرى فإن المرء لا ينضج إلا بالدراسة وبالاطلاع، ولا شك في أن الرحلات جزء من الدراسة إلا إذا صرفت همك إلى القشور السطحية. ثم بادرته مازحة:

وماذا لو تزوجت هناك

تتزوجين دون إرادتي؟

بل بإرادتك

ثم أردفت:

خوليو مثلا رجل شهم يرفض حتى أن يصحبني إلى اسباينا دون موافقتك ولهذا جئت أستشيرك

وأين ستنامين هناك؟ هل سألته هذا السؤال؟

طبعا، قال أن هناك ديرا للراهبات يستقبل الزائرين العاملين في مؤسسات الكنيسة

...

استغلت سائدة إجازتها السنوية فودّعت أسرتها وركبت السيارة مع خوليو وإحدى الراهبات إلى عمان وجلست في المطار ساعة أو نحوها وركبت الطائرة بعدها إلى مدريد. وقفت معهما أمام باب الدير فقرعه وفتحت إحدى الراهبات وهي فتاة في منتصف العمر فرحبت بهم وجلسوا أمام حديقة الدير تحت مظلة حجرية ممتدة ترتفع تحت الغرف المتجاورة ثم تقدمت نحوهم إحدى الراهبات بشراب الليمون وببعض الحلوى مما يُصنع داخل الدير.

وحين حان موعد العشاء وهو الساعة السابعة دعي الجميع إلى غرفة الطعام فتناولوا طعاما متواضعا وشربوا الشاي ثم غادر خوليو الدير مودعا وظلت سائدة والراهبة الضيفة تتسامران مع عدد من الراهبات إلى أن أوَتا إلى الفراش في الغرفة التي خصصت لهما.

obeikandl.com

وكان صباح اليوم التالي ذا جمال لم تعهده سائدة في رام الله إذ جالت مع الراهبة الضيفة في أرجاء الدير وأثار دهشتها نظافته وهدوؤه ثم أصابت الفطور مع الراهبات. وما هي إلا أن جاء خوليو بسيارته واصطحبها مع الراهبة إلى أماكن مختلفة في مدريد فبدت كعصفور يحلق لأول مرة فهي تتوقف أمام النوافير وتدخل المتحف الذي يضم تاريخ اسبانيا وتتوقف أمام حوانيت الملابس تنعم النظر في الموديلات النسائية الحديثة، وحين أحسّت بالجوع مال ثلاثتهم نحو أحد المطاعم واستوقفت نظرها صورة القنينة والكأس للرسام "فان جوخ" فتأملتها بإعجاب شديد حتى إذا فرغت من الطعام قالت لخوليو دعني أدفع أنا فأجاب ضاحكا ليس الآن فأنتما ما زلتما ضيفتين.

وجلسوا في مقهى بجوار شارع مبلّط فشرعت تجيل النظر في المارة والطيور التي تحطّ أمامهم فتساءلت في سرّها "لماذا لا يخشى هذا الحمام البشر مثلما يفعل الحمام في بلادنا؟' ولم تجد جوابا فمالت برأسها نحو عازف قيثارة جلس على الرصيف ووضع منديلا كي يحصل على تبرعات من المارة إن رغبوا في ذلك.

وبادرها خوليو:

ما رأيك في أن تسكني مدريد؟

ومن يكره الإقامة في هذه المدينة الجميلة ويعيش مع سكانها؟ فلم أشاهد أحدا ينظر إلى الآخرين في الشارع أو في أثناء جلوسهم في الأماكن العامة.

فسارع إلى القول:

الناس هنا لا يتدخلون في شؤون الآخرين والانسان وحده مسؤول عن أفعاله. فما رأيك في أن نعقد قراننا هنا في المحكمة فلسنا

مضطرين إلى تغيير العقيدة الدينية أنت تبقين مسلمة وأنا أحافظ على عقيدتي المسيحية؟

والأولاد؟

يختارون دينهم حين يكبرون فالدين مسألة شخصية غير مرتبطة بالدولة كما هو الحال عندكم

أخشى ألا يوافق أبي

هذا الأمر متعلق بك ولكن لا بد من استشارته

فكانت سائدة خلال إقامتها في مدريد على اتصال مستمر بأسرتها وتتلقى نصائح أمها التي لا تنتهي وكأنها حدست أن ابنتها تفكر في الزواج من رجل اسباني غير مسلم فطمأنتها وقالت في نفسها "أحسّ أحيانا أن اقتناعي برأيي لا يدفعني إلى أن أتمسك به إلى النهاية إلا أنني مقتنعة تماما أن سعادتي بجوار خوليو.

وطلبت منه قبل عودتها بيوم واحد أن يصحبها لزيارة قصر الحمراء الذي أذهل كل من رآه كما سمعت، فاصطحبها إليه وما إن اقتربت منه حتى وجف قلبها وانهالت على فكرها صور الماضي من الحضارة العربية الإسلامية ثم دخلت أبهاء القصر وكلما اتسعت رؤيتها له وهي تجول فيه ازدادت إعجابا بتلك الحضارة.

وكان خوليو يقف إلى جانبها ويراقب مشاعرها، فقال لها مشجعا: "هذا القصر فرض على الاسبان أن يحترموا العرب" ثم غادرا المكان وسارا غير بعيد عنه ودخلا مقهى صُفّت كراسيه على الرصيف فقال لها ضاحكا: "أنت الآن المضيفة وطلب القهوة السريعة الذوبان وكذلك فعلت هي ودفعت الحساب ثم عادا إلى مدريد فاتجها إلى الدير وودعها وجلست مع الراهبات يتسامرن حول هذه المدينة وحول رام الله، وقد ظهر لسائدة أن إحدى الراهبات قد زارتها وعملت

فيها في إطار تخصصها بالعلاج الطبيعي إذا استدعيت إلى الضفة الغربية لمعالجة الكسور التي أصابت عددا من الشبان حين هاجمهم جنود الاحتلال وعاقبوهم بكسر بعض أطرافهم وذلك خلال انتفاضة الشعب وذكرت لها أنها لقيت احتراما كبيرا لها بين أبناء الشعب فقالت: "لا عجب في ذلك فإن الناس يؤمنون عندنا أن من فضائل الإيمان احترام الأديان وأصحابها."

وفي الصباح استقلت السيارة إلى المطار فودعها خوليو وهو يقول في نبرة جادة "لم أفقد الأمل بعد" فردت عليه فورا "ولا أنا"! وحين حلقت بها الطائرة استرجعت في ذاكرتها وقائع الرحلة ورأت أنها يجب أن لا تضعف أمام الواقع الذي يلفها ويكاد يخنق أنفاسها وأن أمامها خيارات كثيرة لتحقيق حلمها بزوج ترتاح معه ويكون زوج العمر.

ومرت سنتان لم يأت فيهما خوليو إلى رام الله فداخلها شعور بأنه قد تزوج وما هي إلا أن جاءت برقية إلى القس ميخائيل أن خوليو ومعه بعض الموظفين قادمون إلى المدينة لمراجعةوضع المكتبة ولتوسيعها بعدما ازداد روادها من الأطفال. وكان مع خوليو امرأة عرّفها بها بقوله إنها زوجته وهي عربية من لبنان. فقالت في نفسها يبدو أن خوليو يطمئن إلى الفتيات العربيات وذكر لها أن زوجته مسلمة وقد تزوجها أمام قاض في مدريد على أن يبقى كل منهما على العقيدة التي ولد فيها وتساءلت في سرها "من من الناس اليوم يختار دينه حين يولد؟".

إلا أنها لم تحتمل الموقف الذي واجهها فيه خوليو فأسرعت بالدخول إلى مطبخ المكتبةوأعدت للقادمين القهوة السريعة الذوبان ثم انسحبت إلى ركن من المكتبة بحجة وضع الكتب المستردّة والكتب

العشرين التي ابتاعتها من معرض لكتب الأطفال وقالت في نفسها: الجبناء يخسرون دائما فلو صممت على الزواج بخوليو لغضبت الأسرة بعض الوقت ثم تعود الأمور إلى مجاريها... على أية حال لا أهمية للندم الآن، هذا ما كتبه الله.

. . .

obeikandl.com

12

جاء إلى المكتبة عصر أحد الأيام شاب طويل القامة نحيل الجسم فحيا سائدة والموظف المسؤول وسألهما:

هل في المكتبة كتب تتحدث عن الأخلاق؟

فردت سائدة، مستغربة:

هذه مكتبة أطفال كما ترى

ولكن الأطفال سيكبرون، أليس كذلك؟

فأجابت:

طبعا ولهذا نحن نقدم لهم القصص التربوية التي ترغبهم في القراءة والأخلاق السامية

أحب أولا أن أعرفك بنفسي، فأنا من نابلس وجئت إلى رام الله لأعد كادرا من القادة للسيطرة على الوضع في الضفة ثم أرسل بعضهم إلى غزة للسيطرة عليها وإعلان الإمارة الشعبية، فإن هؤلاء المسؤولين لا يقيمون وزنا لمصلحة الشعب، وقد اغتنوا على حسابنا

obeikandl.com

ولهذا نحن فقراء لا نملك مكانا نأوي إليه، فقالت معترضة:

ولماذا لا تقوم بهذا العمل من خلال الانتخابات فإذا فزت تحققت أهدافك بسهولة

لعلك لا تعرفين أنني ملاك جعله الله إنسانا فأتيت إلى الأرض مرغما ولكنني ذهلت لما رأيت الفقر متفشيا في الضفة

فتبادلت سائدة نظرات السخرية مع الموظف إذ أدركا أن هذا الشاب يعاني من مرض عقلي

فقالت له:

في هذه المدينة مكتبة للكبار أيضا وهي قائمة قريبا من ميدان الساعة فأسرع إليها قبل أن تغلق أبوبها.

فشكرهما وخرج فأحسّ الاثنان براحة نفسية لأنهما لم يتعرضا للأذى وعقب الموظف على كلام هذا الرجل بقوله " هذا الوضع التعس الذي نعاني منه سيجعل الكثيرين يفقدون عقولهم " .

وسادت بينهما فترة صمت قبل أن يدخل طفل مع أمه لإعادة قصة واستعارة أخرى، فذهب الطفل إلى أحد الرفوف واختار قصة فسجلتها سائدة ثم حيّتها الأم وهي خارجة وكذلك فعل الطفل. وقد لفت انتباه الموظف خفوت صوت الأم فقال لسائدة "أعرف من خبرتي بالمجتمع أن المثقفين يغلب أن يكون صوتهم منخفضا، وحين تحدثنا تشاغلت هذه المرأة بالنظر إلى رفوف الكتب لئلا تحرجنا. "

ثم عادت سائدة إلى البيت بعد انتهاء الدوام فجلست في غرفة الجلوس وشرعت تداعب طفلها قبل أن تدخل إلى غرفة المطبخ لتصيب من الطعام ما أعدته أمها، وأجلست الجدة حفيدها على كرسي بجوارها فسألتها سائدة:

أرجو ألا يكون أحمد قد أتعبك اليوم

وهل هذا اليوم هو أول يوم يتعبني فيه، فالولد كثير الحركة ويجب أن ترسلية إلى الحضانة وأن ينفق عليه أبوه فليس هو ابننا وحدنا.

فأحست سائدة كأن طعنة تغلغلت في جسدها وقالت في نفسها " حين تفتقد المرأة الزوج ينفر منها أهلها " ، فدمعت عيناها فأقبلت عليها أمها وأحاطتها بذراعها إذ شعرت أنها جرحت مشاعرها وقالت:

لم يكن قصدي إهانتك لا سمح الله، فأنت ابنتنا وستظلين كذلك سواء أكنت متزوجة أم مطلقة.

وحين عاد أبوها من السوق وجلس معها يلاطف ابنها، قال لها ضاحكا:

لدي بشرى لك من عمك فقد أخبرني أنه اتفق مع رجل أن يزورنا مع ابنه ليتعرف إليك فإن رغبت في الزواج منه سرنا فيه، طبعا بعد أن تتعرفي إلى أفكاره وحياته وإلا كلّ يذهب في طريقه

فقالت غير متمهلة:

عمي يريد لي الزوج الذي يوافق هواه وأفكاره وهي أفكار لا أرتاح إليها لأنها موصولة بالماضي ولهذا أرفض الاقتران بهذا الشاب.

فردّ باقتضاب يائس:

كما تريدين، ولكن اعلمي أننا لا نريد تزويجك لأننا متضايقون منك ومن ابنك فنحن أولى الناس بكما.

فاطمأن قلبها ثم أرادت أن تتجه بالحديث إلى مجرى آخر فقالت:

جاء اليوم إلى المكتبة شاب تميز بطوله ولكن مظهره لا يريح العين وكان بنطاله ينحسر إلى الركبة.

فقال الأب مستبقا:

وماذا كان يريد؟

أراد أن يستعير كتابا في الأخلاق فقلنا له أن مكتبتنا للأطفال فقط

ولكن المثير للدهشة ادّعاؤه أنه ملاك متجسد جاء إلى الأرض ليقضي على الفساد.

فعقب ضاحكا:

سمعنا كثيرا عن أطباق طائرة وأشخاص من الفضاء الخارجي وعن جن يتزوجون البشر وكأن لهم أجسادا، غير أننا لم نسمع عن ملائكة متجسدة لإحقاق العدل.

...

كان الرجل الذي يزعم أنه ملاك متجسّد يسير ليلا في شارع يافا، فلقيته دورية اسرائيلية وتوقفت بجواره، فسأله الجندي السائق وقد رأى مظهره زريّا ببنطاله القصير الذي يكشف عن ساقيه وقميصه شبه المهترئ:

ماذا تفعل في هذا الليل؟

أحشد قواتي

وأين هي قواتك؟

أصفرا أمام كل بيت فتخرج

وما هدفك؟

معاقبة بعض الفاسدين الذي جاءوا إلى الضفة لملء بطونهم

وهل أنت جائع؟

لا أنا ملاك متجسد لا يهمني الطعام ولكن هل معكم بعض الطعام؟

فضحك جنود الدورية وتركوه وشأنه

وفي الصباح استيقظ سكان الحي فوجدوا قرب المتنزّه جثة رجل ينبطح فوقها كلب صغير نائم لعلّه أشفق عليه فأراد أن يدفئ معدته في تلك الليلة. فاستدعى شرطي سيارة اسعاف حملته بعيدا ثم تفرق

openkanal.com

الناس، وقال أحدهم وهو في الخمسين من عمره:

لم يعد أحد يُعنى إلا بنفسه في هذه الأيام.

وبادره شاب يسير إلى جانبه وكان بادى الحزن "لم أكن أتوقع أن أرى التباعد بين مشاعر الناس إلى هذا الحد" ثم تابع "قبل أيام استشهد شاب يسكن أهله في حارتنا فأقاموا له بيت عزاء، فهل تصدق أن عرسا كان في نهاية الشارع وكانت زغاريد النساء تصل إلى آذان أهل الشهيد والمعزين؟"

...

كان الشيخ عاصم وأسرته يزورون رؤوف وأسرته وكان الجو صيفيا فجلسوا في شرفة المنزل كي يستمتعوا بالهواء الذي يأتي من النوافذ الثلاث المفتوحة على حي "الشراقة" فقال الشيخ عاصم "أحسنتم اختيار هذه المنطقة فهواؤها يرد الروح كما يقولون" وأجاب رؤوف "لم نخترها بل اختارها الحاج أبو صالح فقد سألته عن بيت يمكن استئجاره قرب منزله لأنني أحب هذا الحي الذي شهد طفولتنا فدلني على هذا البيت وهو غير بعيد عن بيتنا السابق الذي استأجرته المرحومة أمنا. فقال الشيخ عاصم:

وما أخبار هذا الحاج؟

قال رؤوف:

يقال أنه احتجز في منزله شقيق زوجته المريض كي يستأثر بماله لأنه كان من الأثرياء في يافا وقد باع بيته وبيارته قبل التهجير بأشهر وافتتح محلا واسعا قريبا من المنارة وحين مرض باعه، فآواه أبو صالح وسلبه ماله ومنع الأهل والأصدقاء من رؤيته بحجة أنه مسلول.

وعقبت زوجة رؤوف:

هذا العجوز كان يفتت القلب ولكنّ أحدا لم يكن معْنيا بمساعدته مع أنه كان يملك المال الذي يوفر له العلاج لو أراد الحاج أبو صالح أن يعالجه، قاتل الله الطمع.

فقالت زوجة الشيخ عاصم:

ولماذا لم يتزوج؟

فقالت زوجة رؤوف:

بل كان متزوجا ثم توفيت زوجته دون أن تنجب

ثم دخلت سائدة تحمل صينيتين عليهما عدد من الساندويشات فقطعت حديثهم وشرع كل منهم يأخذ نصيبه منها قبل أن تعود إلى المطبخ لتحضر الشاي فقال رؤوف:

هذه الأمور التي نسمع عنها تجعل مشاعرنا مضطربة

فردت زوجة أخيه:

لم يتغير شيء في سلوك الناس فما نسمع عنه اليوم سمع عنه آباؤنا وأجدادنا.

وانتقل الشيخ عاصم بنظره إلى لوحة للرسام الإيراني "محمود فاشيان" أطلق عليها اسم "خمسة أيام من التكوين" وهي حول خلق العالم بحسب العقيدة الدينية. فعلق رؤوف باسما:

جميلة، أليست كذلك؟

فأجاب الشيخ وهو ينظر إلى سائدة بطرف عينه:

وأجمل منها من اشتراها

فقالت سائدة وهي تنظر إلى اللوحة:

رأيتها في أحد المعارض الفنية فأعجبتني

قال رؤوف:

سائدة مغرمة باللوحات الفنية وهذه اللوحة جديرة بالإعجاب

الفن غذاء الروح كما يقولون، وهو كذلك
لماذا إذن تخلو حيطاننا من اللوحات؟
تساءلت زوجة الشيخ فأجاب بنبرة صارمة:
اسألي نفسك، هل منعتُكِ يوما من اقتناء لوحة فنية؟
فقالت الزوجة:
لا... ربما كنت أظن أنك لا تحبّذ وجودها في بيتنا
وهل أنا عدوّ للجمال؟ اشتري من اليوم ما شئت من لوحات الفن وسأعلقها بنفسي على الحيطان

أخذت الشمس تميل إلى المغيب وتسللت نسمات باردة إلى الوجوه فغادر الشيخ عاصم منزل أخيه مصطحبا زوجته

وتساءلت سائدة وهي تجلس أمام التلفزيون بعدما نام طفلها "ما قيمة حياتي وإلى أي هدف أتجه؟" ثم تذكرت قول إحدى المدرسات "إذا أراد المرء أن يتجنب الملل يخلق به أن يجتمع إلى الناس وأن يضع لنفسه هدفا". فالتحقت بعد أيام بمؤسسة اجتماعية ذات أهداف متنوعة واختارت أن تشرف على المحاضرات. وكان أول من استضافته طبيبا متخصصا في العظام. وكان موضوع محاضراته الذي اختاره هشاشة العظام. ثم أجاب عن أسئلة الحاضرات وقد تبيّن لها أن لمحاضرة كانت ضرورية لأن معظم النساء أظهرت خوفا من هذا الداء.

...

13

داخلت السعادة جاد وهو يرى شركة التأمين التي أسسها مع رجل أعمال تزداد ازدهارا، فقال في نفسه "هذه ضربة الحظ التي حققتها، فعلى الانسان أن يطرق كل الأبواب فإذا وجد بابا مغلقا تحوّل إلى باب آخر، ولا بد أن ينفتح أحد الأبواب في نهاية المطاف."

وفي جلسة عادية لأعضاء الشركة عرضت على المدير قضية صاحب محل للأحذية تدفقت المياه إلى دكانه فأتلفت الأحذية التي على الأرض فجاء يطالب بالتعويض بحسب عقد التأمين فرفض المدير التعويض بحجة أن هذا التلف سببه صاحب الدكان إذ كان ينبغي أن يرفع الأحذية على ألواح خشبية، فقال له جاد:

إن الرجل يدفع لنا كل سنة مبلغ مئتي دينار تأمينا ولم يطالبنا بشيئ حتى هذا اليوم فيجدر بنا أن نقدم له تعويضا بسيطا ليظل زبونا دائما للشركة إلا أن المدير أصر على الرفض قائلا:

هل تريدنا أن نخسر مئة دينار؟ فإن كرمك هذا سيقودنا إلى

obeikandl.com

الإفلاس، إننا نخدم الناس لكي نربح لا لكي نخسر.

فضحك جاد في سره قائلا "ما بال هؤلاء الأغنياء لا يحتملون خسارة لا تذكر".

ثم انتقل الحديث إلى عزم بعض الأثرياء على إنشاء شركة لصناعة السجائر والتنباك فذكر المدير أنه سيساهم بثلاث مئة ألف دينار وقال "هذا مبلغ يسير إذا قيس بالأرباح التي سأجنيها فعقب جاد ضاحكا "لم تترك شركة الا استثمرت فيها منذ مجيئك إلى الضفة الغربية بعد اتفاق أوسلو" فرد المدير مؤنبا:

وهل تريدني أن أُبقي كل أموالي في دولة قطر؟ الذكي لا يضع بيضه في سلة واحدة

طبعا لا أحد يشك في ذكائك ولهذا أسرعت بالمجيئ إلى رام الله ...

كان اجتماع المؤسسة الشهري في الأسبوع الذي تلا المحاضرة وقد بدت السعادة على وجوه الأعضاء وأثنين على تقديم سائدة لها وللمحاضر وعلى تنظيم الأسئلة التي وجهت إليه. وخلال الاستراحة تقدمت منها زميلة وسألتها بصوت خافت:

ما رأيك في هذا الطبيب؟

فأجابت:

لديه علم جيد في الطب وهذا رأي اللواتي استمعن إليه

فأسرعت تقول:

أخبرني أمس مساء أنه يرغب في التعرف بك بقصد الزواج

لا بأس شرط أن يواجه أهلي أولا فإذا وافقوا التقينا في بيتنا وتعارفنا وتحدثنا فأنا مطلقة كما تعلمين ولدي طفل!

أخبرني أنه هو أيضا قد طلق زوجته الفرنسية ولديه منها طفلة

في السابعة

وحين بلغت سائدة البيت جلست قليلا ثم دعت أمها وأباها إلى الجلوس معها فدهشا لهذا الطلب العاجل واستبشرت الأم خيرا، على أن أباها بدا مستغربا فأخبرتهما بأمر الطبيب الذي ألقى المحاضرة وأنه طلب إليها أن يتعرف بها تمهيدا للزواج إذا وقع في نفسها ووافقت على الزواج. فأسرعت الأم تقول: "إنه طبيب يا ابنتي وقلّ من الرجال من هو في مستواه العلمي"، أما الأب فأبدى حذرا وقال "أسمع كثيرا عن زيجات فاشلة في هذه الأيام وأسر مفككة". إلا أنه وكل الأمر إليها لأنها هي التي ستتزوج وهي امرأة ناضجة. وطلب فسحة من الوقت للاستفسار عن حياته الخاصة إذ ينبغي التروي، فالزواج ليس نزوة عابرة، فقالت الأم:

كثيرون مثل هذا الطبيب الذين يتزوجون نساء أجنبيات ثم تفشل زيجاتهم، ورام الله ملأى بهؤلاء الأشخاص

لا أطعن في هذا الطبيب فقد يكون من خيرة الرجال

ولكن لا بد من السؤال عنه أولا.

وقالت سائدة في نفسها "لا بد من تغيير في حياتي وإلا انقضت هدرا كما أن المستقبل بغير زوج صالح غير مأمون."

ثم تذكرت ابن عمتها فارس الذي طلق زوجته البليجيكية بعد أن أنجبت له ولدين وذكّرت أمها بها فقالت:

مسكين هذا الشاب سمعت يا ابنتي أنه ما زال يبحث عن وسيلة تمكنه من رؤية الولدين.

فعقبت سائدة:

ولكننا نجهل مجريات حياته مع تلك الزوجة فإن الناس يلقون اللوم دائما على المرأة إذا فشل زواجها.

فقال الأب مستدركا:

وهذا ما فعلوه عندما طلقت من زوجك

وطلب إلى ابنه أن يتحرى أخبار هذا الطبيب فأجاب:

لحسن الحظ أنه صديق لأحد زملائي

ثم جاء في اليوم التالي ليقول لوالديه:

ابشرا، صهركما الجديد لا يعيبه شيء

فابتهجت الأم ورفعت رأسها إلى السماء داعية الله أن يتمم هذا الأمر وأن تكون نهايته خيرا للأسرة

وقال الأب لسائدة دون أن يبدو منفعلا بالخبر السار:

على اية حال اطلبي من زميلتك أن يتفضل بزيارتنا، وليسّهل الله الأمور

كانت الساعة قد بلغت العاشرة فشعرت أنها بحاجة إلى النوم إلا أنها تقلبت في الفراش بعض الوقت وكأن دوّامه من الأفكار تلف رأسها ثم نامت ورأت نفسها في حلم أنها توشك أن تسقط من أعلى البيت إلا أن الطبيب أمسك بها بقوة ففرحت كثيرا، وهنا فتحت عينيها فشكرت الله أن هذا الحادث كان حلما. وحين أخبرت أمها بالحلم أجابت: "خير إن شاء الله، ولا أحتاج إلى أن أنصحك بأن تكوني صريحة معه حول المستقبل، فلا تخجلي من أي استفسار."

وحين طرق الطبيب الباب أسرع رؤوف إلى فتحه فرحب به وقاده إلى الصالون ثم طفق يحادثه حول أمور تتصل باهتماماته في المستقبل ونظرته إلى المجتمع وهنا دخلت سائدة فحياه أبوها وخرج ليفسح لهما مجال الحديث فسألها:

أين المحروس طفلك؟

ذهب مع أمي لزيارة بيت عمي

وقد بدت خجلة شيئا فساد بينهما صمت قطعه بسؤالها:

ما رأيك في محاضرتي حول هشاشة العظام؟

فأجابت بصوت خافت:

كانت مفيدة وقد أعجبت كل من استمعت إليها والحق أننا بحاجة إلى مثلها. وقد أثنت عليك اللجنة لتبرعك بإلقائها.

فأجاب في حماسة:

ما أهمية حياتنا إذا لم نتواصل مع المجتمع وإذا لم نستخدم علمنا في نشر الوعي

ولكن بعض الأطباء يحصرون همهم في جمع المال

صحيح ولهذا قلما نجحوا كأطباء ويجب أن أعترف أن ثقتك بنفسك في إدارة المناقشة بعد المحاضرة قد أثارت إعجابي.

وحين سألت زميلتك عنك قالت إنك غير مرتبطة فجئت أعرض عليك أن نعيش معا وأن نرعى ابنك وابنتي في زواج سعيد، فقالت:

حديثك مشجع ولكنني أرغب في أسأل عن السبب الذي دفعك إلى تطليق زوجتك

فأجاب بنبرة تنم على الأسى:

كانت دائمة التذمر ثم تعرفت بتاجر لمواد التجميل فكانت تطيل الجلوس في دكانه وترفض أن تقطع علاقتها به لأن صلتها به أخوية فحسب كما كانت تردد ولم أستطع أن أقنعها بأن في سلوكها خروجا على قواعد الدين وأخلاق المجتمع.

فأجابت سائدة على الفور:

أما أنا فإن لدي قناعاتي فيما ألبس وما أسلك ولكن في إطار الدين والأخلاق، ولا أذكر أن أبي فرض علي الحجاب مثلا.

هذا أمر آخر فليس الدين إكراها لأنه يقوم على المحبة والإقناع

openiKandil.com

بالحسنى، والاختلاف بين الناس سنة الحياة أيضا.

...

لم يمض أسبوع على مجيء الطبيب إلى منزل الأسرة حتى جاء صديق لوالد سائدة يطلب منه أن يعمل على عودة ابنته إلى زوجها السابق لأن هناك طفلا يجمعهما معا فسألته:

هل مجيء هذا الوسيط اليوم مصادفة أم أرسله ممدوح لأنه سمع برغبة الدكتور معتصم في الزواج مني؟ أبي إن ممدوح ذو أخلاق عالية هذا صحيح، إلا أنه متزمت يفكر كما كان الناس يفكرون في العصور الماضية رغم أنه يرتدي ثياب هذا العصر فلا يسعدني العودة إليه، أما ابني فأنا مسؤولة عنه ما دام طفلا فإذا بلغ فالأمر بيده لأنني لا أجد السعادة إلا في أن أكون حرة كعصفور طليق، لماذا تكون الطيور أفضل حالا منا؟!

...

انقضى على تعارف الدكتور معتصم وسائدة اسبوعان فقالت له:

الآن تستطيع أن تطلب يدي فإن كل ما طرحناه من آراء كان مقبولا لدي أما أختك فإن الله سيحل عقدة زواجها ولن تكون عبئا في بيتي إن شاء الله.

فعقب مؤيدا:

وستعينك في الإشراف علىولدينا والعناية بالبيت حين تعود من عملها.

ثم استدعت والديها وقالت لهما أمام الدكتور معتصم:

أظن أنني موافقة على الزواج من الدكتور معتصم

فأشرقت عيونهما وباركا لهما ثم راح الجميع يتحدثون في

ترتيبات الزواج ونادت الأم حفيدها الذي كان يلعب مع ابن الجيران على الشرفة وقالت له:

سلّم على عمو معتصم

فارتد إلى الوراء قليلا والتصق بجدته وظل صامتا فقالت له مشجعة:

غدا سيحضر لك هدية حلوة

فأجاب:

بابا يحضر لي الهدايا عندما يأتي

فشرعوا ينظرون بعضهم إلى بعض في حزن وطفرت دمعة من عين جده حاول أن يخفيها بالنظر إلى الجدار المقابل فتقدم منه الدكتور معتصم وحمله وأجلسه على ساقه وقبّله وهو يقول:

الآن سأذهب معك لتختار هديتك

إلا أن سائدة قالت مستدركة:

الوقت متأخر اليوم

فقال له:

حسنا إذا أحضر لك هدية كبيرة لأنك ولد شاطر وأنا أحبك كثيرا

فاستذكرت زوجها السابق وبرزت ملامح وجهه واضحة أمام مخيلتها وطفقت تنقل النظرات بين ملامحه وملامح معتصم وقارنت بين جسديهما فبشرة معتصم قمحية وبشرة زوجها السابق أدنى إلى البياض وحين هبت نسمة ريح منعشة من نافذة الصالون انبعثت من وجه الطبيب رائحة عطرة استثارت رغبتها في معانقته وقالت في نفسها "هذا الشاب يحسن اختيار العطر الذي يدفعني نحوه واستغربت كيف أنها لم تشعر بهذه الرغبة مع زوجها السابق.

...

obeikandl.com

14

انتهى حفل الزفاف فركب العروسان سيارة ازدانت بالورود يملكها زميل للدكتور معتصم واتجها إلى الفندق ليمضيا بضعة أيام. فجلسا يحتسيان الشاي في بهوه، وبادرها بالقول:

سعادتي لا توصف بوجودك إلى جانبي

سأكون إن شاء الله خيمة البيت ما دمت العمود الذي تستند إليه

العمود وحده لا يرفع الخيمة فلا بد لها من حبال وأنت حبالها والحق أنني بحثت كثيرا عن امرأة تدفعني إلى الاقتران بها حتى تعرفت بك

طالما آمنت أن لله خطة لكل انسان فإذا تحققت ظن ذلك صدفة صحيح، فلو لم نلتق في الندوة لما كنا هنا

فأمسك بيدها وانتقلا إلى الطابق الثاني في الفندق حيث الغرفة المعدة لهما

...

obeikandl.com

غمرت البهجة سائدة بمنزلها الجديد لولا وجود أخت زوجها إذ كانت كلما خرجت من غرفتها صباحا ترى هذه الأخت تنظر إليها بحزن ثم تخفيه بابتسامة صغيرة وهي ترد على تحية الصباح التي توجهها إليها وكأنها تقول في سرها لماذا تنعمين بالنوم مع زوجك وأنا أتقلب في فراشي وحيدة، فما أكثر ما اشتد وجيب قلبها وهي تسمع صرير السرير في غرفتهما المظلمة فيمتد بها الخيال إلى ما يصنعان، فطالما رددت القول "أمن العدل أن أحرم الزوج وقد بلغت الخامسة والثلاثين ومن سيأتيني في هذه السن إلا أن يكون مطلقا أو أرملا، وما أقل المطلقين والمترملين."

ثم تعود بها الذكريات إلى خمسة عشر عاما حين ارتبطت بحب زميل لها من قضاء الخليل ووعدها بالزواج بعد التخرج والعمل، وما إن استدار بظهره إلى منزله حتى انقطعت أخباره ثم أرسل إليها بعد انقضاء سنة أنه وجد عملا غير أنه ما زال يبني مستقبله، إذ لا يعقل أن يسكن منزلا لا يسهل عليه أن يدفع إيجاره وتمنى أن يقف أهلها إلى جانبه في هذا الشأن، فأحست أن مطلبه للتعجيز فقط إذ هل يقبل أهل أن يدفعوا أجرة منزل لابنتهم بعد الزواج؟ وحين امتدت القطيعة بينهما أدركت خطأها في الارتباط بعلاقة الحب تلك وندمت ندما شديدا حين كانت تدعه يضمها إلى صدره ويغمرها بقبلاته المحمومة في غفلة عن الأعين. ثم علمت أنه سافر إلى قطر وأنه يقيم فيها مع زوجته. وحين تقدم إليها خاطب شاب بعد أشهر أخبرها أن إقامتها ستكون مع أسرته فسألته دون أن تخفي علامات الغضب على وجهها:

وأسرتك كم عددها؟

فأجاب وقد أخذ بانفعالها:

openkarabic.com

يبدو أنك انزعجت، على أية حال هي أسرة صغيرة أبي وأمي وأختاي وأخواي، على أننا لن نبقى معهم إلى الأبد إذ لا بد من أن ننفصل عنهم حين تسهل الأمور ويعمل أخواي فأنا ما زلت مسؤولا عن الأسرة وربما عاونتيني بجزء من راتبك، فابتسمت بهزء قائلة:

سيتصل بك أخي حين أنتهي إلى قرار

ثم علمت أنه مطلق وأن لديه طفلة في السنة الرابعة من عمرها.

...

اتصل القس ميخائيل برؤوف وهنأه بزواج ابنته ثم استأذن في زيارته لتهنئته شخصيا معتذرا عن التأخر في هذا الشأن لوجوده خارج رام الله فرحب به قائلا:

البيت بيتك يا رجل... أهلا وسهلا في أي وقت

ثم اتفقا على موعد الزيارة وهو يوم الاثنين وكان حديث القس عن عمل سائدة في المكتبة وحسن أدارتها بها إلى جانب الموظف ثم أردف:

أي شخص من أسرتك وأسرة الشيخ عاصم ترغب في العمل في المكتبة فإنني أرحب به فأثنى رؤوف على حرص القس على استمرار الصداقة بينهما منذ الطفولة، ثم أخرج القس مظروفا ورقيّا مغلقا به ألفا دينار مكافأة لسائدة مقابل عملها في المكتبة. وحين خرج تصافح الاثنان ولم ينس رؤوف أن يطلب منه تكرار الزيارة، فعاتبه القس قائلا:

لم تزر منزلي منذ أن رسمت قسيسا في هذه المدينة ولا تنس أن تصحب السيدة زوجتك لتتعرف إلى زوجتي فهي امرأة اجتماعية وستسّر بمعرفتها.

...

ازدهر عمل شركة التأمين واتسع في مختلف المدن. وذات يوم اتصل بمدير الإدارة رجل قال إنه من رجال السلطة ويريد أن يتعرف به ليقيم بينه وبين الشركة تعاونا معيّنا فرحب المدير بمكالمته واتفق معه على موعد للقاء وهو اليوم التالي. وقد فوجئ بتهديد مبطن له أن السلطة يمكن أن تغلق الشركة إذا رفض المدير أن يساهم هذا الرجل في الشركة، فأجاب المدير بنبرة هادئة:

وما الحصة التي تريد أن تساهم بها؟

فقال الرجل:

ليس معنا مال كما تعلم فقد جئنا من الخارج خاوي الوفاض

فقال المدير:

في هذه الحال يجب أن أستشير مجلس الإدارة، وإذا رفض طلبك فأنت مخير في أن تفعل ما تراه مناسبا

فأبدى جميع الأعضاء استنكارا لهذا التهديد وانتظروا أن يفعل شيئا كانتقام منه ثم طال انتظارهم وقال جاد لمجلس الإدارة ساخرا:

لقد سمعت الكثير عن تصرفات شبيهة بسلوك العصابات صدرت عن رجال عادوا إلى الضفة الغربية

وعقب المدير بنبرة حزينة:

لولا الانتفاضة التي ذهبت بأرواح كثير من الأطفال والشاب لما رأينا أمثال هؤلاء

ثم استكمل المجلس مناقشة الأجندة المقررة. قال المدير "لدينا ربح يقدر بمئتي ألف دينار فهل نوزعها بين المساهمين أم نشتري بعض قطع من الأرض لأن أثمان الأراضي جعلت تميل إلى الارتفاع بعودة عدد من الأثرياء." فأثنى جاد على فكرته وكذلك فعل الأعضاء الآخرون.

ولم تمض سنتان على شراء تلك الأراضي حتى بلغت أثمانها ثلاثة أضعاف المبلغ الذي اشتريت به، فسر أعضاء المجلس وعلق أحدهم بقوله:

ليتنا نوجه أحدنا ليتابع حركة الأراضي كي نوسع نطاق التعامل بها، فأرباحها تبدو مذهلة في هذه الأيام

وقال جاد في سرّه "الآن يجب أن أبني أسرتي"

وحين فاتح أمه في الأمر لم تخفِ سعادتها وأسرعت إلى والده تقول:

ابنك ينوي الزواج لأنه يشعر أن وضعه الآن مستقر فنهض من مقعده وقبل ابنه وهو يقول:

الحمدلله الذي هداك إلى هذه الفكرة، فإن الصديقة لا تنفعك كالزوجة فها أختك سميرة على أبواب الزواج أيضا بعد أن استقرت سائدة في بيت زوجها.

فقال جاد وعلامات الدهشة بادية على وجهه:

لم أعلم بهذا الأمر إلا الآن

وهل التقيت بك هذا الأسبوع حتى أخبرك ويبدو أن أمك تظن أنك تعرف، فإن شركة التأمين تأخذ كل وقتك مثلما أرى، على أنه يسعدني أن تكون الشركة ناجحة كما أسمع من الناس

وأردفت الأم:

وأحب أن أخبرك أنك ستكون خالا للمرة الثانية

هذا خبر سار أيضا فهل هناك أخبار سعيدة أخرى خلال هذا الأسبوع؟

وقال رؤوف بعد فترة صمت بصوت خافض:

هناك خبر غير سار أحب أن أخبركم به، فقد أعلمني عمك أن جدك

قد توفي في الرملة قبل أشهر وقد سمع بذلك مصادفة

ولكنكم لم تتواصلوا معه منذ أن جئتم إلى رام الله ولو حدثتمونا عنه حين كنا صغارا لما انقطعت علاقتنا به ولظلت (الرملة) تعيش معنا ولو لم نعش فيها

على أية حال رحمه الله، كان يجب ألا يترك أمي وينساق وراء نزواته فنكّس جاد وأمه رأسيهما حزنا ثم قالت الأم:

البركة فيكم فقد بنى أبوك وعمك سمعة طيبة بين الناس بفضل سلوكهما وبفضل رعاية المرحومة جدتك وكانت تستطيع أن تتزوج حين طلّقها جدُّك ولكنها لم تفعل

وعقب رؤوف قائلا:

كانت رحمها الله امرأة فاضلة وإذا أردت أن تستحضر حياتها في خيالك فانظر إلى أمك

فبادرت زوجته بالقول:

حاولت أن أكون كما ينبغي أن تكون الزوجة والأم، وقد نجحت والحمدلله، ولكن من ذا الذي لم يقع في خطأ خلال حياته أما أنا فقد تعلمت من أخطائي وكذلك فعل أبوك بغير شك.

تمت بحمد الله

obeikandl.com